الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي لميلة
معهد الآداب و اللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع.....

جدلية الواقعي والشعري في مجموعة "أثر الفراشة" لمحمود درويش

مذكّرة مقدمة لنيل شهادة اللّيسانس، في اللّغة والأدب العربي.
تخصص: أدب عربي.

إعداد الطلبة:
* صبرينة العيفة
* فتيحة بلمهبول

إشراف الأستاذ:
* باروق هشام

السّنة الجامعية:2013/2012

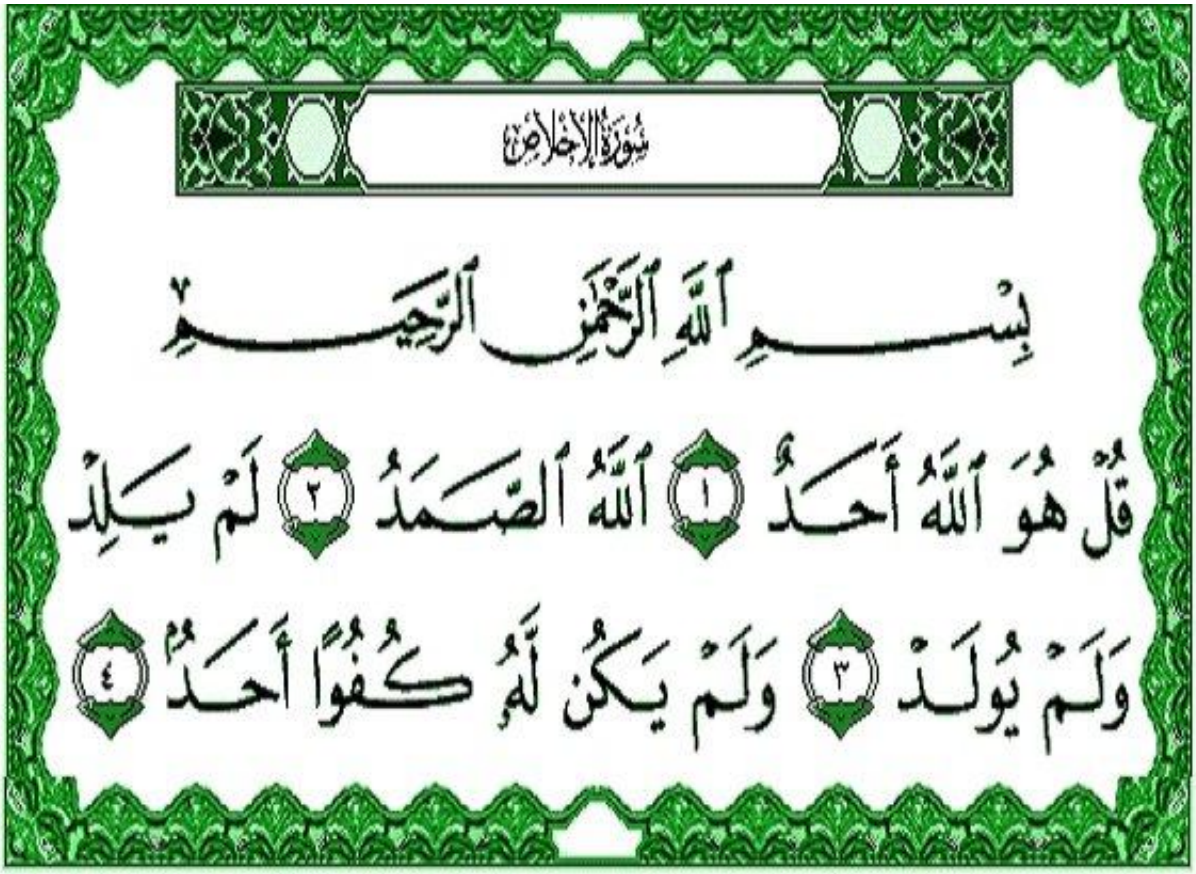
سورة الإخلاص
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤

شكر وعرفان

بسم الله و الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين.

نحمد الله أولا ودائما ونشكره على أن وفقنا وأعاننا على إتمام هذا العمل.

ونتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ المشرف "باروق هشام" على ما قدمه لنا من نصائح وتوجيهات في سبيل إثراء هذا الإنجاز، كما نشكر كل من ساهم من قريب أو من بعيد في سبيل إنجاز هذا العمل.

في الأخير نشكر كل الأستاذة بكلية الآداب واللغات الذي عملوا على تكوين وإنجاح دفعة (2012-2013) إن شاء الله.

يعتبر الواقع بمثابة المادة الخام الذي يقوم عليها الشعر، هذا الأخير الذي يعبر عن الدنيا سواء بقساوتها وحلوها وللكشف عن الأبعاد الحقيقية المتخفية بستار الواقع حيث نجد الشاعر يكشف عن حالاته وانفعالاته بواسطته وعن طريقه، فالشاعر يمزج بين الواقع والشعر بطريقة فنية ذات أبعاد جمالية فهذه الميزة لا يمتاز بها إلا الشعراء القلائل.

ومن بين هؤلاء الشعراء محمود درويش، ذلك الشاعر الكبير الذي يمثل واحدا من القامات الشعرية المديدة في ديوان الشعر العربي المعاصر هذه الميزة جعلته يتصدر المشهد الشعري العربي لعقود، فقد كان ولا يزال شعره موضع استلهام لدى قطاع كبير من الشعراء الجيل الذي أعقبه وخاصة في علاقة الشاعر بواقعه محيطه الإنساني وطرائق توظيفه لهذا الواقع جماليا.

وعليه قررنا أن نتناول بالبحث والدراسة هذا الموضوع مع الأخذ في الحسبان البحث عن القيمة الجوهرية لجدلية الواقعي والشعري في شعر محمود درويش انطلاقا من طرح مجموعة من التساؤلات أهمها:

هل حقا هناك علاقة جدلية قائمة الشعر والواقع؟ وإن كانت كذلك هل استطاع الشاعر أن يعبر عن الواقع في قالب شعري ذي أبعاد جمالية؟ هل استخدم درويش الواقع جماليا أم نقله كما هو؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات آثرنا أن يكون موضوع بحثنا موسوما: "بجدلية الواقعي والشعري عند محمود درويش _ أثر الفراشة _ أنموذجا"

أما فيما يخص الدراسات السابقة التي تطرقت لهذه الجدلية "الواقع / الشعري" فهي قليلة أهمها:

- شعر الواقع وشعر الكلمات" لمؤلفه ضياء خضير.

وهي دراسات لم تتعمق في الكشف عن جماليات هذه الجدلية بين سطوة الواقع وشعرية توظيف هذا الواقع عند محمود درويش خاصة.

تكمن أهمية الدراسة في كونها تسلط الضوء على قضية هامة من قضايا نقد الشعر المعاصر إذ تحاول اكتناه أسرار وطرائق توظيف محمود درويش لواقعه المؤلم في شعره وللتعبير عن المأساة الحقيقية التي يعيشها هو وإخوانه الفلسطينيين في الوطن الحبيب.

أما عن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع فهو حب الإطلاع وفضولنا في الكشف عن كيفية توظيفه للواقع في الشعر وكذلك؛ بسبب قلة الدراسات التي انصرفت لاستجلاء ظاهرتي الواقع والشعر من جهة، ومن ناحية أخرى تتمثل في رغبتنا الشديدة التي تحدونا لارتياد عالم درويش الشعري.

ولقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من الدراسات التي أعانتنا ومن أهمها:

- الخطاب الشعري لمؤلفه: محمود فكري الجزار.
- إضاءة النص:لاعتدال عثمان.
- جماليات الموت في شعر محمود درويش: لعبد السلام المساوي.
- قلق النص: لغالية خوجة.

ولقد استعنا على مقاربة هذه الأهداف بالمنهج الذي رأيناه مناسبا، وقد اعتمدنا في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي بوصفه المنهج الأنسب في رأينا من أجل استقراء العلاقة الجدلية بين الواقع والشعر وتحليل هذه العلاقة من منظور جمالي.

وعليه جاء البحث مقسما إلى مقدمة ومدخل وفصلين وفق الخطة والتنظيم التاليين:

- المدخل: ويتضمن العلاقة القائمة بين الشعر والواقع
- الفصل الأول: "شعرية العتبات وصراع المتناقضات"، حيث خصصناه لدراسة العتبات ودراسة في صراع المتناقضات من ذاكرة ونسيان وكذلك الشعر الموزون والشعر المنثور إضافة إلى ذلك المكان واللا مكان.

- الفصل الثاني: الموسوم "بحضور الخيبة وصورة الأشياء"، وقد اشتمل على ما يحدث للذات والجسد من انقسام وخيبة جراء الواقع المتسلط من جهة والواقع المأمول من جهة ثانية، إضافة إلى صور الأشياء وانطباعها في فكر الشاعر بعد هذه الخيبة كما تطرقنا لعلاقة الشاعر المتسمة في صور الموت وصور الطبيعة.
- وفي الأخير استخلصنا خاتمة فيها جملة من النتائج التي توصلنا إليها.

وكغيره من البحوث الأخرى لا يخلو هذا البحث من صعوبات واجهتنا أثناء جمعنا له من قلة مادته وهذا ما دفعنا للشعور بالقلق و الملل مما أدى إلى خيبة كبيرة.

وفي النهاية نتقدم بالشكر الخاص جدا للأستاذ المشرف "باروق هشام" ونأمل أننا قد وفقنا من هذا العمل فحسبنا أننا حاولنا والله الموفق وهو يهدي السبيل.

الواقع والشعر: جدلية الواقع والشعر

الشعر والواقع قضية شائكة تطرق إليها النقاد والباحثين، ذلك لمعرفة مصدر الشعر وهل كان الشعر إلهام من الواقع والحياة أم لا؟.

وبالرغم من أن هناك اختلافات في الإجابة على هذا السؤال إلا أنني أرى أن الشعر يستمد من الواقع أو على الأقل يكون مرتبطا به ذلك لان الشاعر إنسان يعيش في مجتمع ولديه واقعه وحياته التي يعيشها مثله مثل الناس الآخرين فهو يتأثر بما يجري حوله من مفارقات وتناقضات في الواقع والحياة فتثيره هذه الأمور وتحفزه على التعبير والإفصاح عما يختلج في نفسه.

فالشعراء ككل أو أغلبهم في تعريفهم للشعر يربطونه بالحياة وبواقعهم ونجد توفيق الحكيم في تعريفه للشعر يقول:<<لابد بأنه تصوير للحياة، بل انعكاس الحياة على نفس الشاعر.... فالشعر مثل القمر لا يعطينا الحياة في أشعتها المحرقة ووهجها الذي يعمي البصر ولكنه يتلقى بعض أشعتها ويضيفها من خلال نفسه ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءا جميلا منظما مهذبا، ترتاح له العين>>[1].

وإن توفيق الحكيم محق في قوله هذا لأن الشاعر يحاول أن يرفع لنا الواقع ممزوجا بأحاسيسه ومشاعره وخيالاته وآماله وأحلامه التي تكمن وتأمل في غد أفضل وأحسن. ذلك أن الشعر بمثابة الشعاع المنير الذي يستعين به الشاعر للتعبير عن واقعه وعن تجربته المستمدة من واقعه ومن مجتمعه، فالشعر المتنفس الوحيد للشاعر الذي من خلاله يمكنه أن يعبر عن ما يدور في واقعه وعن تأثره به.

منذ القديم والشعر مرتبط بالواقع، فالواقع هو الذي يدفع لشاعر لقول الشعر لكن ذلك من خلال رؤيته الفنية الخاصة، فالشاعر في القديم لم يكن يعب عن الواقع بأتم

[1]–توفيق الحكيم: فن الأدب، دار مصر للطباعة–جودت السحار و شركاؤه، مصر، د،ط2،ص202.

المعنى، وإنما اقتصر ارتباطه بالواقع على مدح الخلفاء وأصحاب السلطة والإشادة بخصال القبيلة والإشادة بانتصاراتها وهذا ما أكد عليه عبد الصبور وبدر شاكر السياب[1]

وهناك العديد من النقاد والدارسين من ذهبوا إلى أن الشعر في القديم لم يكن يعبر عن الواقع بأتم معنى الكلمة ولم يعبروا عن الحياة في جميع مجالاتها، فنجد الدكتور طه حسين في كتابه"الشعر الجاهلي" قد أنكر صلة شعر شعراء هذا العصر بالواقع وبالأحداث التي كانت تدور في ذلك العصر حيث يقول:<<الشعر لم يعكس حياة الجاهلية بكل صورها>>[2].

وربما يعود السبب في هذا لكون الشعر كان يستعمل كوسيلة لكسب المال في الغالب، كما أن الشاعر لم يكن لديه ذات في الشعر أي لم يكن يضفي على شعره أحاسيسه ومشاعره بل يكتب ما يراه الآخرين ليس ما يراه هو.

فالشاعر يجب أن يعبر عن واقعه المعاش كما يراه هو، لأن للشاعر نظرة خاصة ومتميزة عن نظرة الآخرين وكل شاعر يختلف في رؤيته للأشياء وللأحداث الحاصلة في واقعه عن الشعراء الآخرين وعن بني البشر.

ومع تطورت الحياة والظروف التي مر بها العالم العربي وتدريجيا أصبح الشعر تابعا للشاعر يعبر عما يختلجه وعن أفكاره وعن رؤيته الخاصة التي ينظر بها إلى الواقع، وكأن التعبير عن الواقع في الشعر أصبح مرتبطا بالشاعر وبذاته.

وكما يقول العقاد في كتابه الديوان:<< ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو، ويكشف لك عن لبابه و صلة الحياة به>>[3].

فالعقاد يرى بأنه لابد أن تكون هناك علاقة بين الشاعر والحياة أو الواقع وأن يكون الشعر ممثلا لها أحسن تمثيل في جميع صورها وفي جميع مجالاتها السياسية والثقافية والاقتصادية.....فإن الشاعر الأصيل من يتمكن من نقل واقعه من خلال شعره إلى

---

[1]– فاتح علاق: مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر، منشورات إتحاد الكتاب العرب– دمشق،2005،ص280.

[2]–أحمد عثمان: في الشعر الجاهلي و اللغة العربية، مكتبة الشروق

[3]– عبد القادر المازني: الشعر غايته ووسائله، دار الفكر اللبناني– بيروت، ط2، 1999،ص21.

المتلقي ويؤثر فيه وهذا ما أشار إليه محمد منذور:<<فعلى الكاتب أن يجمع بين أمرين: أولا تصوير الواقع تصويرا يعيد خلقه على نحو حي، وثانيا: ترتيب هذا الواقع المصور أو المخلوق وسرده بحيث يثير القارئ ويولد الأثر الذي يهدف إليه الكاتب[1].

أما في العصر الحديث وخاصة شعراء الشعر الحر فهناك اختلاف في كيفية توظيف الواقع في الشعر، أو في كيفية محاكاة الشعر للواقع، بغض النظر عن الاختلاف القائم بين الشعراء في نظرتهم للواقع وعن ما يقصدونه بالواقع إن كان الواقع اليومي أو الواقع الخفي....

فهناك من يرى بأن هذا الاختلاف يكمن في طبيعة الشعر، ذلك لأن طبيعتها الأخيرة تختلف عن طبيعة الواقع، فالواقع مملوء بالمآسي والأحزان، وهذا ما ذهب إليه السياب:<< فهو يرى أن الواقع غير شعري في ذاته ولهذا وجب أن لا يكون الشعر انعكاسا له إننا نعيش في عالم قاتم كأنه الكابوس المرعب، وإذا كان الشعر انعكاسا من الحياة فلابد أن يكون قاتما ومرعبا>>[2].

كما أن التجربة الشعرية تختلف عن تجارب الحياة ذلك أن الشعر تجربة جمالية، بينما الحياة عشوائية ومليئة بالأفراح والأحزان في وقت واحد، كما أن للواقع نظامه الزماني والمكاني.... فالشاعر لدى توظيفه في الشعر فإنه يتلخص منه ويصبح الواقع خاضع للعرف الجمالي>>[3].

وكما يرى شلوفسكي فإن الفن تعريب للواقع حيث يقول:<< غاية الفن أن ينقل الإحساس بالأشياء عندما تدرك وليست عندما تعرف، وتقنية الفن هي جعل الأشياء، غريبة جعل الأشكال صعبة، مضاعفة صعوبة الإدراك ووصوله؛ لأن عملية الإدراك غاية جمالية ينفسها وينبغي أن يطول أمدها، الفن سبيل لاختيار فنية الشيء>>[4].

---

[1]– محمد منذور: في الأدب و النقد، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع–النجالة، القاهرة،1991،ص39.

[2]– حسن العرفي: كتاب السياب النثري، منشورات مجلة الجواهر، فاس، المغرب، 1986،ص 68.

[3]– صلاح فضل: النظرية البنائية في النقد الحديث، منشورات دار الأفاق– بيروت، ط3،1985،ص65.

[4]– عيسى العاكوب: نظرية الأدب في القرن لعشرين، عين للدراسات البحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر،ط1،1996،ص 22.

إذن فإن الشعر يغرب الواقع ويفقده ماديته ثم يعطيه صورته الفنية، فيصبح الواقع ذو قيمة جمالية في الشعر.

و يرى بلندالحيدري أن الشعر ليس انعكاسا مرآويا للواقع من جهة لكنه ليس هروبا منه جهة أخرى <<و إذا جاز لنا أن نأخذ على بعض أدبنا القديم كونه وقع أسير واقعه في القبيلة و العائلة.... جاز لنا أن نأخذ على الكثير من أدبنا اليوم انقطاع أسبابه عن واقعنا>>[1].

فنلاحظ إذن أن الشعر ليس صورة طبق الأصل عن الواقع، وإنما هي صورة عن علاقة الشاعر بالواقع الذي يعيشه ويتأثر فيه.

إن الشعر لا يتحدد بقربه أو بعده عن الواقع وإنما يتحدد من خلال موقفه من الواقع بنوع علاقته به وطرقة وتصوره>>[2].

فكما قلنا سابقا على أن الشعراء يختلفون في نظرتهم للواقع، ولكل شاعر كيفيته في تصوير الواقع أي من الدواة التي ينعكس عليها.

ويرى حجازي أن الشعر لا يتحدد بواقعيته أو عدمها ذلك أن الواقعية ليست قيمة أولا، كما أنها ليست قيمة سالبة أو موجبة في ذاتها ثانيا فالسلب أو الإيجاب إنما يتحدد بحسب تعامل الشاعر مع الواقع، فثمة من يقيد بحدوده وثمة من يتجاوز هذه الحدود[3].

فحجازي يعتقد بان الواقع ليس لديه قيمة فنية في حد ذاته، كما أن الواقع لا يمكن تحديده إن كان سالبا أو موجبا إلا من خلال تعامل الشاعر معه، ذلك لان <<الشعر لا يسعى إلى تجميع الحس السليم المشترك بين جميع البشر بل إلى التوغل في أسرار العالم المعجز الفائق الطبيعة و الفائق الواقعية>>[4].

---

[1]–بلند الحيدري: إشارات على الطريق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت، ط1، 1988،ص95.

[2]– فاتح علاق: مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر، ص160.

[3]– أحمد عبد المعطي حجازي: أسئلة الشعر، منشورات الخزندار– جدة،ط1،1992،ص94.

[4]–محمد حمود :الحداثة في الشعر العربي المعاصر، الشركة العالمية للكتاب – بيروت، لبنان،ط1،1999.

إن العلاقة بين الشعر والحياة هي علاقة أزلية باقية بقاء الإنسان على سطح هذه الأرض فكما شبه أدو نيس هذه العلاقة كعلاقة بين الوردة ورائحتها الوردة مشروطة بالتربة والمناخ وغير ذلك من الشروط المادية، لكن الرائحة شيء أخر تخضع لهذه الشروط وتتخطاها فهي في آن منها وليست منها>>[1].

قد ميز أدو نيس أن هناك نوعين من الشعر يختلفان في علاقتهما بالواقع: أحدهما يصف الحدث والثاني يحوله إلى رمز، وهذا الأخير ما ذهب إليه رواد الشعر الحر كامل ونقل حيث يقول حجازي في رسالة بعثها إليه بقول فيها:<< صورة الحياة اليومية في شعرك تعبير عن عالم داخلي، لا عن عالم خارجي، أعني أنها رموز وليست أوصافا[2].

وهذا دليل على أن هناك اختلاف بين شعراء الشعر الحر، فكل واحد لديه واقعه الذي يخبره وهذا ما ذكرناه سابقا في قضية الواقع الظاهرة والواقع الخفي.

أما عن الشعر الوظيفي فوظيفته وظيفة يمكن أن يؤديها الكلام العادي أو الكلام الإعلامي، أو أي نوع من الكلام الإخباري التحليل.

فالخصوصية الشعرية أن تحيل الحدث إلى رمز حيث لا تردنا إلى دلالته أو أبعاده في الحركية التاريخية ناقلة حواسنا ووعينا في أفق جمالي تخييلي، قوامه اللغة وعلاقتهما[3].

فعلى الشاعر إن يتجاوز الكلي في الجزئي ويتعمق في الواقع ويحاول أن يعرفه ويمزجه بأحاسيسه ومشاعره.

إن صفة المفكر الأصيل – وهي صفة أساسية للشعراء الكبار– فعليه أن يدرك الكلي في الجزئي و أن يميل إلى تجاوز ذاته، و يسعى إلى تحرير الواقع من المثول و الجمود بالكشف عم يمر به من مقابلات وتناقضات[4].

---

[1]– أدو نيس: ها أنت أيها الوقت، دار الأدب، بيروت، ط1، 1993،ص75.

[2]– أحمد عبد المعطي حجازي: الشعر رفيقي، دار المريخ– الرياض، 1988.

[3]– أدو نيس: سياسة الشعر، دار الأدب، بيروت،ط1، 1985، ص177.

[4]–عبد الفتاح نافع: الشعر العباسي قضايا وظواهر، دار جرير للنشر والتوزيع–عمان،الأردن،ط1،2008،ص156.

فبغض النظر عن وظائف الشعر الأخرى فإني اعتقد بأن وظيفته الأساسية تتمثل في الكشف عن ما يدور في الواقع وخاصة عندما يتعلق الأمر بالوقائع الدامية والمظلمة وكل هذا من خلال تجربة الشاعر والرؤية التي ينظر بها إلى هذه الوقائع، فبما أن الشاعر مرتبط بالواقع وبحس ما يحس الإنسان العادي اتجاه هذه الوقائع فمن الطبيعي أن يعبر عن آمال وآلام أمته وشعبه.

فليس بشاعر من لا يستطيع أن يرى في مجتمعه أو عالمه إلا المظاهر الخارجية، و لا يشغله منها إلا البريق الزائل، ومثله من يبصر الحقيقة ولكن لا يفصح يجاهر بها في لغة فنية أسرة[1].

ولهذا فإن الشعراء هم القادرون على كشف لنا ما يجري في الواقع من حقائق مؤلمة ولا يمكن أن يعبر عن الواقع إلا الشعر مستخدما في ذلك لغة فنية قادرة على التعبير عن المعاناة والآلام التي تواجه الإنسان عامة والإنسان الذي يعيش القهر والظلم كالإنسان الفلسطيني خاصة.

<<لقد ظهر في المرحلة الراهنة من تاريخنا الأدبي ألمع الشعراء العرب وعلى رأس هؤلاء الشبان يقف شاعرنا محمود دروش وهو أول اسم عربي تسلل شعره إلى خارج الأسوار الإسرائيلية >>[2].

ولذلك نجد الشاعر الكبير" محمود درويش" هو الذي ارتقى شعره في التعبير عن الواقع الذي يمر به ويعيشه الإنسان العربي الفلسطيني تحت ظلا هذا القهر المؤلم و الحزين.

"لقد وصل محمود درويش إلى القاهرة للإقامة بها تحت تأثير الإرهاب الإسرائيلي العنيف، ورغبة منه في أن يعلن للعالم كل ما يعرفه عن آلام العرب وواقعهم المعاش في الأرض المحتلة"[3]

---

[1]–حسن فتح الباب: رؤية جديدة لشعرنا القديم، دار الحداثة– بيروت،ط1،1994،ص262.

[2]–رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، دار الهلال-بيروت، ط2، ص6.

[3]– المرجع نفسه، ص10.

إن كل ما حدث للشعب الفلسطيني من مأساة ومعاناة كبيرين جعل الشاعر ينظم قصائد شعرية وأخرى نثرية ليعبر بها عن ذلك الواقع المؤلم والمرير الذي تعيشه الأرض الفلسطينية وما يعبر عن ذلك هو عام 1947 الذي نظم فيه الكثير من الشعراء ومنهم شاعرنا الكبير محمود درويش ولذلك يمكننا القول أن << معظم ما صدر عن الشاعر الفلسطيني بعد عام 1947 هو صدى المجروح وتعبير عن المأساة وتصوير للتشتت و الواقع الذي أصاب الفلسطينيين، ولقد كان هناك بين الحين والحين أصوات تحاول التمرد، ولكن صوت اليأس كان يخنق صوت التمرد ويرتفع فوقه>>[1].

ولهذا فإن كل ما عبر به الشاعر الفلسطيني بعد عام 1947 يتمثل في تلك الآلام و الأحزان والظلم والجرح نتيجة الواقع المر الذي يعيشه تحت حصار العدو<<إن محمود درويش هو ابن هذه المرحلة الجديدة في الشعر الفلسطيني وهو واحد من أجمل وأصدق الأصوات الفنية المعبرة عن هذه المرحلة الجديدة في الشعر العربي وهو الذي يرى بقلبه الكبير حقيقة المأساة والواقع ويرى الظلم الذي وقع على العربي الفلسطيني لابد أن يزول>>[2].

إن محمود درويش كان له تأليف كبير في الظهور بالشعر الفلسطيني المعبر فيه عن قضايا أرضه العزيزة وما يخص الشعب الفلسطيني وما يمر به فحاول أن يظهر لنا الواقع المؤلم من خلا نظمه لقصائد يبين فيها مدى تأثره بشعبه ووطنه.

لقد تعرض الشعب الفلسطيني إلى جرائم فادحة أدت إلى القتل والنهب والاستيلاء والاستلاب مما أدى إلى تدميرهم ماديا ومعنويا.

وهذا ما جعل الشاعر يعبر عما يختلج في نفسه ونفسية شعبه، من آلام وأحزان وعواطف التي يحس بها من جراء قهر العدوان الإسرائيلي.

---

[1]–رجاء النقاش: محمود درويش، شاعر الأرض المحتلة، ص76.

[2]–المرجع نفسه، ص83.

<< إن الإنسان العربي في الأرض المحتلة يعيش ويتعرض لمحنة خطيرة ليس بعدها محنة.....وهي محنة تهدده بالقضاء على أرضه وحياته ....تهدد باقتلاع كل جذوره، بل لقد تم اقتلاع جذور عدمن المواطنين لعرب قبل ذلك من أراضيهم في فلسطين>>[1].

وذلك أن الإنسان الفلسطيني يعيش واقعا مملوءا بالحزن ويتعرض لمحن ليلا نهارا و يسكن داخله خوف ورعب تتماشى و روح العصر الذي نحن فيه.

<< فالعرب لا يتمتعون بحقوق المواطن العادي، ويجدون صعوبات لا حد لها في مواصلة حياتهم اليومية وتحديد مستقبلهم، وإذا أردنا أن نقدم الضغط والإرهاب الإسرائيلي فسوف نجد أمامنا أشياء كثيرة فالعامل في إسرائي لا يتمتع بأي حقوق ولا ينتسب إلى أي ثقافة وهو دائما يقوم بالأعمال الشاقة الصعبة كالعمل في المجاري والبناء و يتقاضى دائما أجورا أقل مما يتقاضاها العامل الإسرائيلي حتى ولو كانا يقومان بنفس العمل، كل هذا بالإضافة إلى إمكانية طرد العمال العرب من أعمالهم في أي وقت دون أية مسؤولية قانونية أو دون خوف من حساب أو عقاب>>[2].

لقد كان العرب في ظل الإسرائيليين يعيشون حياة يومية تعيسة وشاقة مملوءة بالتعب والشقاء ومحرومين من حقوقهم<< يقول محمود درويش في مقطع من قصيدته" رسالة من المنفى" على لسان ذلك المشرد الفلسطيني:

الليل–يا أماه– ذئب جائع سفاح

يطارد الغريب كيفما مضى

ويفتح الآفاق للأشباح

وغابة الصفصاف لم تزل تعانق الرياح

ماذا جنينا نحن يا أماه؟[3].

---

[1]–رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص 84.

[2]– المرجع نفسه،ص14.

[3]–المرجع نفسه، ص 84.

ولو توقفنا قليلا أمام هذه القصيدة فسوف نجد فيها نموذجا للنضج الشعري الذي حققه محمود درويش في ديوانه " أوراق الزيتون".

إن الشاعر الفلسطيني هنا يعطي صورا ورموزا تعبر عن الواقع الذي يعيشه الإنسان العربي الفلسطيني المحروم من كل الحنان و ذلك بالتعبير العشري عنه<<إن المشرد الفلسطيني هنا (في هذه القصيدة) يخاطب الأم رمز الحنان والرعاية العاطفية، و الشاعر يخضع صوره في مقابل صور القسوة التي يلقاها ذلك الإنسان الفلسطيني وهو التقابل بين صوره الأم وقسوة الواقع وهو تقابل فني دقيق يؤدي هدفه بصورة واضحة>>[1].

فمحمود درويش شاعر الأرض المحتلة "فلسطين" يصور لنا عن طريق شعره باستخدام أهم الرموز التي تخدم قصيدته ليعطينا صورة واقعية تعبر عن الواقع المر الذي يعيشه ذلك الإنسان الفلسطيني:<< في شعر محمود درويش تتكرر كثيرا صورة " الريح" و "العاصفة" هاتان الصورتان هما ولا شك تعبير عن نفسية الشاعر وهي ليست نفسية هادئة مستريحة بل هي نفسية ثائرة، تحس بالألم العميق للمصير الذي تعرض له شعب فلسطين، وتعرضت له أرض فلسطين>>[2].

ويعني هذا أن الشاعر يستعمل في شعره رموزا مستوحيا بالطبيعة ليعبر عن حقيقة الواقع المعاش في بلاده بهذين الصورتين ألا وهما " الريح والعاصفة"<< من المؤكد أنه الشاعر الوحيد الذي استخدم هاتين الصورتين بكثرة لا تتكرر عند شاعر عربي آخر، إنه يتحدث عن الطبيعة في ثورتها وعنفها وغضبها أكثر مما يتحدث عنها في هدوئها و وداعتها، لان ثورة الطبيعة هي صورة من ثورة نفسه وغضبها على ما يراه من ظلم و تعسف لا حدود لهما في الواقع الإنساني الذي يعيشه شعب فلسطين>>[3].

لقد تأثر محمود درويش بألفاظ الطبيعة وذلك من خلال توظيفه صورتي الريح والعاصفة

---

[1]–رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص127.

[2]–المرجع نفسه، ص171.

[3]–المرجع نفسه،ص نفسها.

في ثورتهما على الطبيعة والأمر نفسه بالنسبة للعدو الصهيوني الذي فرض قوته على الشعب الفلسطيني.

ولهذا نجد الشاعر قد لجأ إلى استخدام شعر جديد يعبر به عن الواقع المعاش في فلسطين لكي يسهل عليه حرية التعبير في استخدام ألفاظ سهلة وبسيطة يرمز بها في شعره، ونجد شعراء آخرون تأثروا أيضا بالقضية الفلسطينية وبأرضهم المحتلة شاعرنا سميح القاسم وهو أحد رفاق الشاعر الكبير محمود درويش:<< يقول سميح القاسم في قصيدته له بعنوان " القصيدة الناقصة" يصور فيها كيف اعتدى الإسرائيليون على العرب وسلبوا منهم أرضهم فلسطين، ويؤكد الشاعر أن القصة لم تنته وأن لها بقية سوف تحمل العدل يوما إلى المظلومين يقول في هذه القصيدة:

وكان ذات يوم

أشأم ما يمكن أن يكون ذات يوم

شرذمة من الصلال[1].

والذي يعنيه سميح القاسم بالجنة التي دخلتها الصلال" الثعابين والأفاعي" هو تقديم صرة رمزية واضحة لفلسطين التي دخلها الإسرائيليون بسمومهم.

<<ولنتذكر في النهاية أن محمود درويش ليس مجرد شاعر كبير وإنما هو مناضل كبير أيضا، ولذلك فإن أي دراسة له كان يجب أن تمتد إلى التعرض لظروف الأرض المحتلة وشعبها العربي....ولعل خير ما يصور محمود درويش، ذلك الشاعر المناضل الإنسان في كلمات قصيرة وصادقة وهو قوله:

مليون عصفور

على أغصان قلبي

يخلق اللحن المقاتل[2].

---

[1]–رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص24،25.

[2]–المرجع نفسه، ص247.

يعتبر هذا الشاعر من أبرز الشعراء الذين عبروا عن قضية مهمة تتعلق بالشعب الفلسطيني ألي و هي القضية الفلسطينية <<إن محمود درويش لم يهرب- في جميع الأحوال- من موضوعه الرئيس الذي يملأ عليه وجدانه و شعره، بحيث نستطيع أن نقول دون أن نخشى: إن كل شعر محمود درويش يتصل بموضوع أساسي واحد هو وطنه وجراحه فلسطين>>[1].

لقد كان للشعر دور كبير في إبراز المعاناة والآلام التي كان يمر بها هو وشعبه في ذلك الواقع المعاش واستطاع أن يوافق بين علاقة الشعر بالواقع.

[1]-رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص129.

1- شعرية العتبات:

إن أول شيء أو أول عائق يقف أمام الباحث أو القارئ أثناء قراءته أو تحليله لأي نص سواء كان نص شعري أو نثري هي العقبات وهي تعتبر بمثابة الباب للولوج إلى النص فهي مثل باب المنزل التي لا يمكن الدخول إليه إلا عبره، لكن الباحثين والدارسين يرون اختلافا كثيرة في فهم للعقبات وذلك وفق استقرائه للشعر القديم والمعاصر فيرى" أن هناك من ركز على عنوان النص، وهناك من اهتم بمطالع النص، أي الجمل والفقرات الأولى، وهو ما يسميه البعض الآخر بالافتتاحيات بينما نجد آخرين التفتوا إلى المقدمات و المداخل، أن المقدمة والنهاية هما عتبتان بامتياز[1].

ولهذا يمكننا القول أن لعتبة العنوان أهمية كبيرة لدى الكثير من الدارسين، وربما يعود هذا الاهتمام إلى أن عتبة العنوان عند دراستها وفهمها ومناقشتها فستقودنا مباشرة إلى ما وراء العنوان" أي إلى النص" وقد شبهها معجب العدواني بعتبة البيت التي تربط الداخل بالخارج، وتوطأ عند الدخول المكان الذي لا غنى عنه للداخل إلى المنزل في حين لا يمكن لذلك الداخل أن يطأ كل جوانبه حتى يبث دخوله فيه[2].

وكما أشرنا سابقا فإن العنوان ذا أهمية كبيرة يمكن القارئ أن المتلقي يساعده على فهم العمل الأدبي ذلك أن العنوان يشكل بؤرة مهمة لتمكين المتلقي من النفوذ داخل النص الشعري إذ يمده بزاد ثمين لتفكيك النص وفهم ما غمض منه بل إنه المحور الذي يتوالد ويتنامى وبعيد إنتاج نفسه مشكلا هوية القصيدة[3].

*قراءة في العنوان:

وعلى ضوء ما قرناه سابقا سنحاول عتبات لمجموعة الشعرية المختارة و الموسومة" بأثر الفراشة" هذه المجموعة التي صدرت مؤخرا والتي تعتبر الديوان الأخير

---

[1]- حميد لحمداني: عتبات النص الأدبي، مجلة علامات في النقد-النادي الأدبي بجدة، ع46، شوال 1423ه، ص23.

[2]- معجب العدواني: تشكيل المكان و ظلال العتبات-النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ط1، 2002م، ص7.

[3]-محمد مفتاح: دينامية النص، المركز الثقافي العربي-بيروت،ط1،ص72.

للشاعر، وإن دراسة هذا العنوان وتفكيكه يحيلنا إلى أن شاعرنا العظيم لم يختر هذا الاسم صدفة أو بطريقة عشوائية، فلماذا اختار محمود درويش هذا الاسم بالضبط ولم يختر اسما آخر؟

اعتقد أن هناك أكثر من سبب لاختيار محمود درويش الاسم وربما تبقى الأسباب مجهولة في نري، ذلك لأن محمود درويش ترك للقارئ ما يسمى بأفق التوقع لأن ديوانه هذا قد عنونه باليوميات بالرغم من أنها ليست يوميات بمعناها الاصطلاحي، حيث يسأله أحد أصدقائه عن هذا فيقول له"أن تلك ليست يوميات، فلم أسميتها كذلك؟ فأجابه بأن مادتها يومية فقال له : لو لم تضع تلك الشذرات الشعرية الموزونة في الكتاب لحصلنا على عمل ذي وحدة عضوية، فقال له : إنها كانت ضرورية، وأنا أعرف ضرورتها[1].

وبالعودة إلى العنوان" أثر الفراشة" في معناها القاموسي فكلمة أثر الشيء بقاياه و ما يخلفه فعل ما وشيء ما، كالتدخين وما يخلفه من أثر إضافة إلى المخدرات كذلك...وأما الناقد "جاك دريد" فقد يتصرف ذهنه إلى كلمة أثر بمعناها"إن الأثر الأصل هو الإمكانية التكوينية لما يعرف عادة بالاختلاف[2].

أما الفراشة فهي حشرة توصف بالحمق فيقال أحمق الفراشة ذلك لأنها عند ما تقترب من النار تحترق وتموت وبالتأكيد فإن محمود درويش لا يقصد بهذا المعنى ولا يستخدم هذا الدال للفراشة، فدلالات الفراشة عنده"ذات دلالات رمزية عديدة فقد يقصد بها المرأة، المدينة، الكتابة، الفدائي، الزوجة...[3].

---

[1]–أمجد ناصر: "محمود درويش وقصيدة النثر"، مجلة الكرمل، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، مؤسسة بيسان للصحافة والنشر،ع3، ص116.

[2]–سعد البازني وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص58.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ولعل محمود درويش قد اطلع على النظرية المسماة بنظرية أثر الفراشة" هذه النظرية الفيزيائية أو يمكننا القول عنها بالفرضية التي يتخذها علماء المحيط والبيئة، فقدان النظرية التي تأثر بها العديد من الناس وحتى العديد من الأدباء والطبقات المثقفة[1].

فمن خلال هذه النظرية يمكن القول بأنّ أي عمل أو فعل صغير يحدث في زاويته معزولة في العالم فإنه ذلك قد يؤثر على الحياة في مكان بعيد قد يجد ألاف الأميال.

فربما محمود درويش قد تأثر بهذه النظرية وأراد جعل كتابه تحت هذا العنوان، و ذلك أن الفراشة بالرغم من أنها صغيرة في الحجم وباقترابها من النار تموت إلا أنها تطير عاليا إلى أماكن بعيدة وتصل إلى أماكن لا يمكن للإنسان الوصول إليها فربما أراد أن يكون هذا الديوان الذي قلنا سابقا بأنه قد عنونه باليوميات أن يبقى خالا وتبقى تلك اليوميات ذات أثر كبير على كل من يسمعها وأن تبقى أيامه وأيام الشعب الفلسطيني خالدة وذات أثر كبير على من يسمعها، فإن هذا الكتاب أراده أن تكو مثل الفراشة تطير و تخرج من سحب الإسرائيليين إلى العالم الآخر حتى يسمع صوتهم ويبقى ذويهم ذا أثر كبير فاعتقد وكأنه هناك علاقة خفية من وراء هذا الاسم وكأنها هدية.

2-صراع المتناقضات:

أ.المكان واللا مكان:

لكل إنسان مكان يعتز به ويشتاق إليه عند المغادرة ويبقى مرتبطا به مهما طال لغياب، فإنه يبقى ساكنا في مخيلته رغم بعد المسافة والزمن.

والزمان في الشعر تشكل عن طريق اللغة التي تمتلك بدورها طبيعة مزدوجة" إذ للغة بعد فيزيقي يربط بين الألفاظ وأصولها الحسية، كما أن لكل لغة نظاما من العلاقات التي تعتمد على التجريد الذهني لكن المكان الشعري لا يعتمد على اللغة وحدها وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع[2].

---

[1] – سعد البازني وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ص 58.

[2] – اعتدال عثمان: إضاءة النص• قراءات في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة، ط1، 1907،ص7.

لقد كان للغة دور فعال من خلال توظيف الألفاظ التي تدل على المكان والألفاظ التي تتعلق بهذا المكان لكن اللغة لا تكفي وحدها فقد لجأ إلى الخيال الذي يعتمد على اللغة في وصفه للواقع المعاش في وطنه فلسطين والظروف التي مر بها هو وإخوانه.

وكما قلنا فالمكان يبقى ملتصقا بالإنسان وله تأثير في الوجدان البشري" وخصوصا إذا كان المكان هو الأرض (الأم).....ويزداد هذا الحس شحذا إذا ما تعرض للفق أو لضياع، وأكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن الوطن في المنفى[1].

إن محمود درويش من بين الشعراء الذين عاشوا في المنفى ولم يكن البلدان أو الوطن الأم إلا ذكرى ساكنة في المخيلة للأبد وستبقى الأم الكبرى موجودة داخله رغم عيشه في المنفى حيث يقول" إن فلسطين ليست ذكرى....إنها أكثر من وجود، ليست ماضيا ولكنها مستقبل، فلسطين هي جمالية الأندلس"[2].

ونجد الشاعر هنا عبر عن فلسطين وعن شعبه المضطهد الذي سلبت منه الصهاينة بلدهم فبخروجه من الأرض واسترجاعها من الأرض الصهاينة.

إن المكان هو الذي يترك أثرا كبيرا في حياة الشاعر وحالته النفسية تكون نتيجة هذا المكان الذي يعيش فيه "فإن الأثر النفسي الناتج عن واقع اجتماعي هو المحدد لأبعاد المكان عند عزالدين إسماعيل[3].

من هذا كله يمكننا أن نقول أن الحالة النفسية والوضع الاجتماعي هما أساس تحديد المكان والواقع المعاش وبهما يمكن أن نسترجع مكان ما من خلال أحداث حدثت أو نعيش حاضرا في هذا المكان.

لذلك نجد شاعرنا الكبير " محمود درويش" قد عبر عن مكان في مقطوعات شعرية عنوانها "ليل العراق طويل".

---

[1]– اعتدال عثمان: إضاءة النص، ص8.

[2]– محمود درويش: ثلاث شهادات شفوية، الشهادة الثالثة، الكرمل، مجلة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، مؤسسة بيسان للصحافة والنشر– فيرض، العدد7، 1983، ص227.

[3]– حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية و بنية الشعر المعاصر، جدارا للكتاب العالمي – عمان، الأردن، 2007، ص24.

حيث يقول:

" العراق، العراق دم لا تجففه الشمس
والشمس أرملة الرب فوق العراق يقول:
القتيل العراقي للواقفين على الجسد عمتم
صباحا، فمازلت حيا، يقولون: مازلت
ميتا يفتش عن قبره في نواحي الهديل
العراق، العراق....وليل العراق طويل" [1].

من خلال هذه المقطوعات الشعرية فقد عبر محمود درويش عن مكان ألا وهو العراق، وقد كشف لنا عن حالته النفسية إثر الوقع الذي يعيشه الشعب العراقي من قتل و حزن وخوف، وقد جسد لنا صور العراقي من خلال المكان الذي يعيش فيه، فالعراق أعطت لنا صورة مجلة للشعب العراقي عام الذي لا يعرف إلا ليل طويل تكون نتيجة دم لا تجففه الشمس، وهو أيضا يبحث عن قبره فهو حي في الوقت نفسه ميت، لذلك فقد ساعد المكان (العراق) على تجسيد صورة الشعب العراقي ومازالت تقع فالمكان ساعد على استرجاع الأحداث التاريخية التي تحدث هنا فالعراق أصبحت وكأنها شخصية مكانية.

" فخالدة سعيد تسمية المكان التاريخي وترى بأنه المكان الذي يستحضر لارتباطه بعهد مضى، أو لكونه علامة في سياق الزمن، وهكذا يتخذ المكان شخصية مكانية[2].

ولهذا فإن العراق اتخذت شخصية مكانية في المقطوعات الشعرية لتعبر عن الوضع المؤلم الذي يعيشه العراقيون لذلك.

فالوعي بموقع المرء في المكان هو الذي يجعل المرء يحدد أثر المكان وأبعاده ويرسم جمالياته فيصبح مكانا شعريا في القصيدة.

---

[1]–محمود درويش، أثر الفراشة، رياض الريس للكتب والنشر– بيروت، ط2009،2، ص79.

[2]– حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية و بنية الشعر المعاصر، ص23.

ولهذا يمكننا القول" كما يرى اعتدال عثمان" أن المكان الشعري هو نظام من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد المجرد الذهني[1].

إن المكان لا توجد له مفردة تدل وتعبر عما يراد منها كمفردة المكان نفسها، و يعود ذلك إلى أهميته في حياة الإنسان فهو أكثر التصاقا بحياة البشر أكثر من الزمان

" من خلال تاريخنا نرى أن المكان هو رؤيا خاصة للكون عبر فلسفة العصر الذي نحياه، وعلى هذا فالمكان من أكبر الأنساق الفكرية تعقيدا في بناء الشعر الحديث، والبعد النفسي للمكان داخل النص وداخل الصورة الشعرية إلى جانب وظائفه الفنية وأبعاده الاجتماعية والتاريخية والعقائدية التي ترتبط بالمكان، ولا تفارقه حتى أننا نسترجع هذه السياقات والأبعاد عند استرجاعنا للمكان نفسه أو ما يرتبط به[2].

فمن خلال المقطوعات الشعرية التي جاء بها شاعرنا الكبير محمود درويش نلاحظ أنه قام باستخدام سياقات وأبعاد تاريخية واجتماعية ونفسية التي كان يعيشها هذا المكان نفسه لكي يعبر لنا عن كل ما يرتبط به لكنها ساهمت في أنساق أكثر تعقيدا ولذلك يبقى المكان من أكثر الأنساق الفكرية تعقيدا وغموضا غير واضح في بناء الشعر الحديث.

لذلك نجد الشعراء عندما ينقطعون عن وطنهم ووجودهم فيه تأتيهم أساق وألفاظ سهلة معبرة عما يجول في أنفسهم وما يرتبط بوطنهم فيصبح وكأنه موجود معه وذلك عن طريق الخيال الذي لا يفارقه في ذلك اللامكان الموجود ا فيه ولهذا" إن الوجود في المنفى (اللامكان) يعني الانقطاع عن الوجود الفعلي في الوطن كما يعني في الوقت نفسه تمددا داخليا لهذا الوجود ذاته، وحين يصبح وجود الوطن داخليا تنشط حركة الخيل وتظهر للحلم والذاكرة [3].

---

[1]– حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر،ص23.

[2]– المرجع نفسه،ص 25.

[3]– اعتدال عثمان: إضاء النص، ص8.

من خلال هذا يمكننا القول أن لخيال ينشأ إثر وتحت وقع الظروف الاجتماعية والنفسية والسياسية التي يعاني منها الشاعر في ذلك الانقطاع (اللامكان و المنفى) فيساهم الشاعر في التغيير بالألفاظ شعرية وأخرى نثرية معبرة عن الحالة النفسية التي يعانيه هناك.

فمن خلال الأفكار والأنساق الفكرية و السياقات المستخدمة من طرف الشاعر المنقطع عن وطنه تكون بناءا لغويا في القصائد فتكون بديلا عن الانفصال الخارجي عن الوطن" إن تشكل هذه العناصر مجتمعة بناءا لغويا يكون بديلا عن الانفصال الخارجي عن الوطن، ومن ثم لا يكون الانسحاب الاختيار أو الاقتلاع القسري من المكان الذي يحدث في الواقع موتا لفكرة الواقع، وإنما تظل الفكرة قادرة على النمو في القرية، فالشعراء في المنفى يعيشون وطنا لغويا يبنونه في ديوان أو قصيدة شعر[1].

إذن إن المنفى والغربة عن الوطن تساعد الشاعر على خلق ألفاظ قادرة على النمو، فيستطيع حينها أن يؤلف أشعارا عن الوطن في ديوان، فالبعد عن الوطن والحنين والاشتياق إليه جعل الشاعر ينسى أفكار لغوية خادمة لحالته النفسية التي يعيشها في ذلك المنفى.

إن اللامكان الذي يساعد على تحويل الفكرة إلى المكان في القصيدة التي يريد أن ينظمها الشاعر فيصبح المكان قريب منه رغم انقطاعه أو خروجه عنه.

فمن خلال ما سبق يتضح لنا أن المكان الوطن يتحول إلى فكرة، بمعنى أن يتحول إلى حالة ذهنية تنشأ عن انقطاع خارجي فعلي أو معتزم وبناءا عليه على هذا نكون أمام قطبين يمثل أولهما قطب الداخل ويمثل ثانيهما قطب الخارج[2].

[1]– اعتدال عثمان: إضاءة النص، ص8.

[2]–المرجع نفسه، ص11.

ولهذا يمكننا أن المكان الشعري أي جعل المكان في صور شعرية إنما يكون أو ينشأ إثر انقطاع خارجي فينظم الشاعر حوله أبياتا يبين فيها حنينه لوطنه ومدى اشتياقه له فهو يتخيل و يحلم و كأنه فيه و قريب منه.

وقد عبر محمود درويش عن وطنه فلسطين التي كان فيها الشعب الفلسطيني و يبقى من أجلها فكان ليله استرجاع لذكرياته داخل وطنه العزيز، ويؤكد أن الليل في المنفى يجعلك أكثر حنينا و اشتياقا لبلدك (المكان) الذي مهما كنت منقطعا عنه إلا أنك لن تنساه فهو المكان الذي عشت فيه وتعتز به لذلك يقول شاعرنا الكبير محمود درويش في قصيدة" قالت له":

الليل تاريخ الحنين و أنت ليلي
قلت، وتركتني
وتركت لي ليلي و ليلك باردين...
وسوف يوجعني لشتاء و ذكرياتك
سوف يوجعك الهواء معطرا بزنابقي[1].

من خلال هذه المقطوعات الأولى من القصيدة يبين لنا الشاعر محمود درويش أن الإنسان يكون أكبر انسياقا لوطنه عندما يكون منقطع عنه ومنفي، فيكون ليله كله تاريخ الحنين أي استرجاع الذكريات المتعلقة به، وبهذه الذكريات يصبح قريب منه(المكان)

كما أن الخيال والحلم عنصران يساعدان الشاعر على تخطي المأساة والأحزان داخل المنفى، فبخياله وحلمه يستطيع أن يضيء ليله.

إن ذلك اللامكان المتواجد فيه الشاعر والظروف التي يمر بها هناك هي التي جعلته يبني واقعا يسترجع فيه الذكريات بالحلم والخيال حتى يقضي كل أيامه قريبا من وطنه فلسطين.

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص163.

لذلك نجده في المقطوعة الأخيرة من هذه القصيدة السالفة الذكر يقول:

لا بأس
سوف أحب أول عابر
يبكي على امرأة رمته إلى الهباء كما فعلت
سنعتني (أنا و الغريب)
سريرنا و شعورنا بعناية
وول ربما نتلو معا (أنا الغريب)
قصيدة الحب التي أهديتني
الليل تاريخ الحنين
وأنت ليلي[1].

في هذه المقطوعات الأخيرة من قصيدة " قالت له" يتضح لنا أن الشاعر قد عبر عن حنينه واشتياقه لوطنه وما هي الفترة التي يزداد فيها حبك و حنينك لوطنك فقد أعطى لنا مفردات وألفاظ ناضجة ذات أفكار قادرة على النمو، ولذلك فقد تبين لنا أن الانقطاع عن الوطن والبعد عنه والقرابة تجعل الشاعر يتلفظ بأفكار كل فكرة تخدم الفكرة التي تليها لذلك فمحمود درويش في نهاية هذه القصيدة يبين لنا أنه سيضيء ليله و ينيره عن طريق الحلم ويشعر نفسه بعناية اتجاه وطنه، فيشترك مع الغريب التي رمته امرأة إلى الهباء فعل الصهاينة معه، فيضيئا ليلها بدل أن يكون مملوء بالمأساة و الأحزان من دون فائدة، فيصبا على الليل حنينا لا يخرج عن نطاق الوطن، فيجعل ذلك الغريب يتلو معه قصيدة الحب و تاريخ الحنين إلى بلده العزيز.

من خلال صفحاتنا للقصيدة كلها بمقطوعاتها الأولى والثانية يتضح لنا أن الفكرة قادرة على التطور ولنمو في القصيدة وهذا ناتج عن الغربة والنفي الذي عاشه الشاعر بعيدا عن وطنه، وبذلك تنشط حركة الخيال ومستويات الحلم، فالانقطاع أو اللا مكان هو الذي جعل الشاعر أكثر التصاقا بالأفكار ومن ثمة يصبح أكثر التصاقا بوطنه ولهذا يلجأ إلى الحلم فيبني من خلاله مملكة له، ويصب نفسه ملكا عليها فهي مملكة ليلية، فهذه

[1]– محمود درويش: أثر الفراشة، ص ص163،164.

المملكة تزول بزوال الليل، وبظهور النهار الذي يحمل معه الموت ولانتهاء لهذا "كان الشاعر لا يجد ما يقاوم به ضغط الواقع، والشعور بالضيق منه غير الحلم الذي يستنقذه من الوحشة، فينسج له واقعا بديلا[1].

لذلك نجد شعرنا الكبير محمود درويش في مسيرة حياته أسفار وأسفار ملونة بالحزن و الآلام و المأساة إثر الواقع المر الذي يعيشه شعبه الفلسطيني في بلدهم البرية.

ولهذا فإن شاعرنا محمود درويش كان مرهف الحس أشد إحساسا بهذا الانقطاع أو المنفى فلا يخلو من الإحساس بقسوة العدو على شعبه ووطنه، فاللا مكان يؤدي إلى قطع العلاقات بين المكان الشاعر" فالمنفى (اللامكان) حالة ذهنية و قرار داخلي يتكون نتيجة لتفكيك العلائق التي تربط بين الشاعر وبين المكان[2].

إذن فاللا مكان يمّكن الشاعر من استخدام لغة خاصة بالوطن في المنفى ويجعلها تعد وسيلة من وسائل وصف الواقع الذي يعيشه.

فمن خلال هذا نلاحظ أن اللغة تجعلنا نستخدم ألفاظا أكثر نماء لنعبر عن الإحساس والشعور بالحنين إلى الوطن إثر العذاب القاسي والمزري داخل المنفى" فهي تجعل من أن يصير نزيف الشاعر وطنه، والوطن صار كلمات"[3].

إن الكشف عما يجول في نفس الشاعر من أفكار في منفاه اتجاه وطنه جعله يلجأ إلى الربط بين المكان واللا مكان أي عن بلده ووطنه وبين المنفى عن طريق أسطر شعرية تعبر في الوقت نفسه عن الحالة النفسية التي يعيشها إثر الواقع وحنينه له.

من الصعب أن يكون المرء فلسطينيا ومن الصعب أن يكون الشاعر فلسطينيا فشاعرنا الكبير " محمود درويش قد كان له حرية التعبيرات في اختيار مواضيع شعره من خلا نظمه لقصائد شعرية موزونة وهي شعر التفعيلة وأخرى نثرية ليعبر فيها عن الحالة النفسية التي كان يعيشها هو وحالة الشعب الفلسطيني الذي يعيش واقع مؤلم وحزين في

---

[1]– حنان محمود موسى حمودة: الزمكانية بنية الشعر المعاصر، ص95.

[2]– اعتدال عثمان:إضاءة النص(قراءات في الشعر العربي الحديث)، ص18.

[3]– غالية خوجة: قلق لنص (محارق الحداثة)، دار الفارس للنشر والتوزيع– عمان، ط1، 2003، ص47.

أرض لا تعرف إلا الهم والقتل، فكان همه في قصائده هم إنساني لا يتعلق إلا ببلده فلسطين، ولهذا ساهم بهذه القصائد في نقل همومه وهموم إخوانه، وكان الدافع الأساسي و الوحيد لنظم تلك القصائد الآمال والأحلام والعواطف والأحاسيس والواقع،وقد ساهم الشعر المنثور في إبراز كل هذا أكثر من الشعر الموزون (شعر التفعيلة)،ونجد الشاعر محمود درويش يزاوج بين شعر التفعيلة والشعر المنثور في ديوانه" أثر الفراشة" يكتب شعرا ثم نثرا لكن تبقى قصيدة النثر هي التي ألقت اهتماما كبيرا من قبل الشاعر لأنها تنثر الحياة لمالها من عواطف وأحاسيس كما هي في القصيدة النثرية.

***/الشعر الموزون و الشعر المنثور:**

يمكننا أن نعطي تعريف موجز للشعر الموزون فهو شعر التفعيلة الذي يقوم على نظام الشطر الواحد بصفة عامة فيخرج من دائرة القيد إلى دائرة التحرر، فيصبح فيها الشاعر حرا في نظم قصيدته بألفاظ وعبارات مألوفة بسيطة لدى المتلقي.

والشعر المنثور هو عبارة عن شعر في قصيدة نثرية تعتمد على النثر موظفة في جمل متتالية تؤدي إلى تكوين نص شعري، وقد فضل محمود درويش الشعر المنثور على الموزون وذلك أن المنثور يفتح المجال له في إخراج ما هو كامن بداخلة بسهولة فيعبر عن صورة حالته النفسية والمعاناة والآلام التي يعيشها الشعب الفلسطيني وعن الواقع المؤلم السائد في وطنه بارتياح دون اللجوء إلى نظم أشطر تجعل القصيدة غامضة نوعا ما،فاتضحت لنا من خلال قراءتنا لقصائده أن تجربته الشعرية في الشعر الموزون كانت مشبوهة ببعض الغموض" فشعر التفعيلة لا يمكننا أن نكشف أسراره بشكل تام"[1]. كما أن شعر التفعيلة عند محمود درويش يؤدي إلى تغير وهج التوتر فتتلاشى الأفكار في الأشطر فتؤدي إلى عدم الانسجام.والتغير من فكرة إلى أخرى داخل القصيدة ولهذا نقول أنّ:

[1]– غالية خوجة: قلق النص، ص47.

"اللغة تتراكم في ذكر الأشياء فتغير دلالاتها فتتهدم اللحظات الحقيقية التي كان يعيشها وتتحول إلى فاعلية أخرى فتبتعد الصورة ذاتها في القصيدة، فتصبح بعض الكلمات مغايرة لمكانها وزمانها فتتصارع وتتراكم للبحث عن حركية تتولد في اتجاهات جدلية التوتر بشكل يخرج إلى رفض الزمن والمكان بكليته"[1].

كما أن الأفكار في الشعر الموزون تجسد في كلمات متقاطعة إحداهما عن الأخرى، فتنتهي من فاعلية مثلا في الشطر الأول لتبدأ بفاعلية أخرى في الأشطر المتبقية، فلا نستطيع الوصول إلى أسرار هذا الشعر أو ما يتضمنه بشكل تام فتتغير طاقات النص لتشكل طاقات مختلفة فما بينها سواء كانت كامنة بداخله أو خارجها، فتنعكس هذه الطاقات إحساساته وعواطفه وحالته النفسية في القصيدة، فلا يمكننا أن نكشف الواقع المؤلم الذي يعيشه إخوانه الفلسطينيين بشكل تام، لذلك فمحمود درويش يفضل أن يكون تعبيره عن كل هذا بشعر نثري تنسجم فيه أحاسيسه ويوصلها كما هي إلى ذهن المتلقي حتى يعيش اللحظات الحقيقية التي يسردها الشاعر في قصيدته ولكي يعرف مدى معاناة الشاعر و إخوانه إثر الواقع المؤلم السائد في بلده" فلسطين" <<فأحاسيسه وعواطفه وأفكاره في الشعر الموزون عبارة عن كلمات تفقد مكانها وزمانها أما في الشعر المنثور فتساعده على سرد حقائق متتالية دون تقاطع ودون خروج من فاعلية إلى فاعلية أخرى حتى لا يفقد دلالات الكلمات الحقيقية في القصيدة>>[2].

كما أنها لا تختلف طاقاته في سرد تلك الحقائق لهذا فهو يفضل ذلك لكي يكتب مفردات وكلمات في جمل نثرية معبرة تتعامل مع حريته في الكتابة فيكشف لنا في صورة واضحة تلك الآلام والأحاسيس بوضوح دون غموض تام.<<فتنقل لنا حالة الشاعر عبر كلمات متأرقة الأبعاد، فتنتشر في تسرب بين الأشطر في القصيدة"[3].

---

[1]– غالية خوجة: قلق النص، ص46.

[2]– المرجع نفسه ، ص47.

[3]– المرجع نفسه، ص43.

ومن هذا كله ينطلق شاعرنا الكبير" محمود درويش" في البرهان عن ذلك بقوله في قصيدة "عال هو الجبل":

<<يمشي على الغيم في أحلامه، ويرى
ما لا يرى،ويظن الغيم يابسة...
عال هو الجبل
أعلى وأبعد .لاشيء يذكره
بالا مكان .فيمشي في هواجسه
يمشي...ولا يصل
كأنه هو، أو إحدى صفات " أنا "[1].

من خلال قراءتنا لهذه المقطوعة لا يمكننا الكشف بصورة تامة عما يريد إيصاله الشاعر إلى المتلقي، فهو استعمل كلمات واضحة لكن الأفكار ليست واضحة بشكل تام فمثلا في قوله" يمشي على الغيم في أحلامه، ويرى " فقد عبر لنا بمحاولات مغايرة لأحلامه، فهو بعد زمكاني فقد استخدم زمن في غير مكانه وهو البعد الذي حملته الصورة المملوءة بالحزن واليأس عن حالته النفسية التي يعيشها إثر وطنه، فهو يرى مالا يمكن أن يراه، فهو يعبر عن واقع ميت فهو يبدأ بحركة غامضة لينتهي إلى حركة أخرى غامضة، فيبدأ بفاعلية لينتهي إلى فاعلية أخرى فهو يمشي على الغيم في أحلامهم ثم ينتقل إلى انه يرى ما لا يرى فهو يدل على شعور مؤلم، لأنه يحترق مع الواقع بأسلوبه.

كما إنها تعطينا إحساس فجائي ينتقل من حالة الشاعر إلى حالة صوره الدالة عبر كلمات متأرقة الأبعاد في هذه القصيدة الشعرية الموزونة (شعر التفعيلة) مثل الكلمات المذكورة في القصيدة (الغيم، الأحلام، يمشي، يرى، يابسة، عال، الجبل الإمكان، يذكره، هواجسه، يصل)، فقد عبرت الكلمات عن واقع مرعب فقد ردت على الصراع القهري للواقع بصراع نفسي لدى الشاعر فتنكسر الرؤيا فتسمح أصوات الصورة الشعرية، فتؤدي إلى بعض الاندهاش فيعيد و يعطي لنصه صدمة ألا مألوف وذلك من خلال قوله:{ يمشي

[1]– محمود درويش: أثر الفراشة، ص198.

على الغيم في أحلامه"، فلا يمكن أن يمشي في الغيوم بأحلامنا<<فهذا من غير المألوف فقد تركت هذه الدلالات في المعنى بؤرة رؤيوية توغلت فيه إلى طاقة أخرى، ومن فاعلية إلى أخرى>>[1]. وذلك من خلال قوله: " ويظن الغيم يابسة..."

فمن هذين الشطرين نلاحظ أنهما طاقتان تتقاطعان باستمرار لتشكل طاقة أخرى، فهو انتقل من الطاقة الأولى في الشطر الأول وهي "الظن بان الغيم يابسة" ثم ينتقل إلى علو الجبل فقد انتقل من فاعلية أخرى أي من فكرة إلى فكرة أخرى ليخلق فكرة أخرى في قوله:

أعلى وأبعد، لا شيء يذكره"

بلا مكان، فيمشي في هواجسه"

فقد خلقت طاقة أخرى ذات فاعلية أخرى، فيعطي لكل شطر دلالة غير مكتملة ومستمرة للدلالة في الشطر الذي يليه فهو يعطي لأحاسيسه وآلامه وواقعه المؤلم مدلولات متقاطعة فيما بينها، فالإحساس يبدأ بطاقة ثم ينتهي إلى طاقة أخرى مغايرة للأولى تماما، ولذلك فإن في شعر التفعيلة كما يرى " محمود درويش" لا يمكننا أن نكشف بشكل تام تلك الحالة النفسية التي يعيشها والمعاناة والآلام التي سادت وطنه وإخوانه الفلسطينيين ولذلك فهو يفضل قصيدة النثر أو الشعر المنثور الذي يعطي فيه جمل منسجمة يمكن أن نفهم بشكل تام ما يعانيه دون انقطاع أو توتر أو حدوث غموض فيها كما أن الشعر الموزون لا يصور الحالة النفسية الحقيقية للشاعر فهي عبارة عن نظم فقط دون الإحساس التام بالمعاناة لأنه << يحتوى على كلمات كأصوات ليس إلا، وأن معنى القصيدة إنما يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان فهو حصيلة لبناء التنغيم الصوتي أو الأصوات فقط>>[2].

---

[1]– غالية خوجة: قلق النص،ص48.

[2]– المرجع نفسه، ص54.

ولهذا فإن قصيدة النثر تبقى هي الطريق الوحيد لتصوير صورة الحياة ونثرها وجعلها واضحة، حيث ينثر الشاعر هذه الصورة كما هي، ولذلك فقد لقت قصيدة النثر اهتمام كبيرا من قبل الشعراء العرب وخاصة جيل شعراء العرب اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين إذن<<فإن هذا النوع من الصوغ اللساني المسمى بقصيدة النثر هو الذي يمثل الأداة المفضلة لدى الكثيرين للتعبير عن هواجس وأحاسيس ومشاعر لا تريد الإفصاح عما تريد قوله دوما، ولكنها لا تشعر بالانسجام وتطابق الهوية بين ما تطرحه وبين ما هو سائد في السوق الشعرية>>[1].

من خلال هذا يتضح لنا أن الشعر المنثور يبقى هو الوحيد القادر على تصوير صوره حقيقية واقعية لحياة الشاعر وما يتلفظ به.

فالإنسان دائما تجد إعجابه بالغناء الموزون وبالتناغمات التي تستجيب في داخله لكن الشعر الموزون هو عبارة عن نظام غريزي جوهري في نفس الشاعر لاستلهام الإيقاعات في القصيدة ولهذا<<فإن القصيدة النثرية مشروع حاول فيها الشعراء الكتابة بتثبيتها في البيئة الشعرية العربية ومنهم جيل الشعراء العرب اللبنانيين والسوريين و الفلسطينيين الذين كانوا يحسون بالمشاعر نفسها التي أحس بها الفرنسيون في عهود سابقة أو بما هو قريب منها>>[2].

إن قصيدة النثر تجعل الشاعر ينثر الحياة والأحاسيس والعواطف والواقع الذي يعيشه في صورة واقعية معبرة عما يشعر به الشاعر في هذه القصيدة النثرية وبصورة واضحة ولذلك فإن الشاعر محمود درويش له نماذج كثيرة من بينها القصيدة النثرية التي عنوانها "كما لو كان نائما" بقوله :

---

[1]– ضياء خضير: شعر الواقع وشعر الكلمات، من منشورات اتحاد الكتاب العرب– دمشق،2000،ص54.

[2]– المرجع نفسه، ص55.

<<صحا من النوم دفعة واحدة فتح النافذة على ضوء فاتر وسماء صافية وهواء معافى تحسس جسده، عضوا، عضوا فوجده سليما، نظر إلى الوسادة ولم ير شعرا تساقط في الليل، نظر إلى الملاءة ولم ير دما،....>>[1]

نجد أن الشاعر ينثر صورة الحياة التي يعيشها في صورة واضحة ونثرية تمكننا من الكشف عن الحالة النفسية والأحاسيس التي يعيشها إثر واقعه المعاش فهي تكشف لنا حالة الشاعر وقد ساهمت القصيدة النثرية في إعطائها صورة حقيقية للحياة التي يعيشها الشاعر من خلال ألفاظه و كلماته الواضحة دون غموض وإيصال الفكرة بشكل تام على عكس شعر التفعيلة الذي تتراكم فيه الألفاظ وتؤدي إلى معان غير مفهومة في القصيدة من خلال هذا كله يتبين لنا أن الشعر المنثور يمثل أكثر من غيره جانبا مهما من الحساسية الشعرية في يومنا هذا.<<إن قصيدة النثر قد منحت نفسها فرصة أكبر للتأمل في القضايا السياسية والفكرية المطروحة أحيانا والدخول في أحيان أخرى بمماحكات لغوية ولفظية وجمالية لا علاقة لها بهذه القضايا إلا على نحو بعيد وغير مباشر>>[2].

من خلال ما تحمله هذه القصيدة النثرية من جماليات فنية فقد كان لها اهتمام متزايد وتواتر الكتابة حاليا من قبل الشعراء الشباب باعتبارها الأساس الذي ينثر الهواجس والأحاسيس الكامنة في النفس البشرية كما تساعد اللغة الشاعر أن ينثر العواطف والحياة بصورة توصيلية غير متأخرة إلى ذهن المتلقي فالفارق بينهما كبير أي بين لغة النثر ولغة الشعر<< فالفارق إلهام بين اللغة الشعرية ولغة النثر هو التنفيذ الفعلي للغة النظام وتبا لذلك تتقدم الوظيفة التوصيلية في النثر، أما في اللغة الشعرية فإن تنفيذها يلتف على قانونها يلقيه عمقا داخله كبنية مولده له لا مهيمنة عليه وهنا تتأخر الوظيفة التوصيلية>>[3].

---

[1] – محمود درويش:أثر الفراشة، ص222.

[2] – ضياء خضير: شعر الواقع وشعر الكلمات، ص54.

[3] – محمد فكري الجزار: الخطاب الشعري عند محمود درويش،إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2002، ص133.

ويعني أن اللغة النثرية يمكنها أن توصل لنا حقائق مباشرة وبشكل تام أي أنها لا تتأخر في توصيل ما يحس به الشاعر، فقصيدة النثر توحي بالسهولة حيث يعبر محمود درويش عن قصيدة النثر باعتبارها هي التي تنثر الحياة كما هي في الواقع المعاش الذي مر به وعانى منه لسنين طويلة إلى أن توفي ومازال ينظم قصائد ساعدته على نثر الحياة <<أرى أن نصوص قصيدة النثر تحمل إدعاءا نظريا أكثر من تحقق شعري، فقصيدة النثر ليست شعرا ولكني أخاف ميليشيات قصيدة النثر فهي توحي بالسهولة>>[1].

يمكن القول أن اختيار قصيدة النثر على قصيدة شعر التفعيلة لم تكن من أجل التطور بل إن قصيدة النثر يمكنها أن تنثر الحياة كما هي بموسيقى ومن هذا تأتي الأسباب الفنية والجمالية لاختيار الكتابة في إطار قصيدة النثر للإدراك أحيانا أن الشعر العمودي وشعر التفعيلة قد أصبحا قديما وأدركه التحجر والرتابة على الرغم من كل محاولات التغيير والتطوير في طبيعة البناء الموسيقي لهذا الشعر[2].

ويعني هذا أن الشاعر يرفض الوسائل الآلية للشعر الموزون المقفى (شعر التفعيلة) لأنها تخلط بين الصوت والمعنى وتجعله يسير وفق أوتار ميتة لا تنطوي على الحياة التي يعيشها.

ب – الذاكرة والنسيان:

إن الإنسان منذ هذه الحياة إلى غاية لقاء حتفه يمر بالعديد من المواقف والتجارب التي تبقى هذه الأخيرة لصيقة الإنسان وتتبعه طوال حياته وتبقى كامنة في داخله وذاته حيث تبقى راسخة في ذاكرته لا يستطيع الزمن محوها أو التخلص منها وللذاكرة نوعان منها الشخصية ومنها الجماعية هذه الأخيرة التي تكون في أذهان جماعة من الناس يشتركون في أمور معينة كالدين والعادات والتقاليد، أو قد عاشوا مواقف وتجارب جماعية كالحروب والكوارث الطبيعية وغيرها من الأمور الحاصلة في هذه الحياة وعادة ما تكون الذكريات مرتبطة بالطفولة هذه الأخيرة التي تعبر بمثابة النور والبراءة بالرغم من أن

---

[1]– غالية خوجة: قلق النص، ص191.

[2]–ضياء خضير: شعر الواقع و شعر الكلمات،ص56.

هناك من لم يعش طفولته أو كما يقول عنها بلند الحيدري كانت (رمالا وتلالا من التراب)[1].

وبالرغم من هذه الطفولة المرتبطة بالأولى والشقاء فتجد الإنسان يستعيدها و يتذكرها ربما ليتلمس نوع من العزاء خاصة إذا كان واقعه المعاش أو حاضره مماثل لتلك الطفولة وهو الحال بالنسبة لشاعرنا محمود درويش التي كانت طفولة فيها نوع من الألم خاصة عند خروج الشاعر من قريته هو وأهله واستيلاء الصهاينة عليها كما لا ننسى نصيب النسيان من الذاكرة أو الذكريات نظرا لكون النسيان والذاكرة عنصران متناقضين بالرغم من أنهما ملتصقين ببعضهما البعض، ذلك لكونهما يصدران من ذات واحدة، فحسب ظني فالنسيان جزء من الذاكرة، لأن في ذاكرتنا الكثير من الأمور الجميلة التي نحب أن نتذكرها وفي نفس الوقت أشياء عشناها سيئة ومؤلمة نحب نسيانها، وذلك خصوصا عندما يكون الحاضر مختلفا عن الماضي ويكون أفضل منه ومن الواجب القيام كأول خطوة في هذا الحاضر المختلف إلى الأحسن بنسيان الماضي الأليم والمرير حتى نتمكن من العيش بهناء واستقلالية.

وبالرجوع إلى موضوع بحثنا فإن الشعراء لهم وجهة نظر حول هذا الموضوع أو بالأحرى في طريقة التعبير عنه.

وإن محمود درويش قد جسد هذا الموضوع " الذاكرة و النسيان" في صور قصائد شعرية ذات جمالية فنية رائعة، وإن شاعرنا ومن خلال مجموعته الشعرية" أثر الفراشة" نجده أحيانا وكأنه يفر ويهرب من الحاضر إلى الماضي ويتذكر الأشياء الجميلة بالرغم من أن ماضيه هو الأخر مليء بالأحزان وتسكنه الآلام لشقاء ونجد محمود درويش في قصيدة يرى نفسه غائبا حيث يقول:

" أنا هنا منذ عشر سنوات، وفي هذا المساء
أجلس في الحديقة الصغيرة على كرسي من
البلاستيك، وأنظر إلى المكان منتشيا بالحجر
الأحمر.أعد الدرجات المؤدية إلى غرفتي
على الطابق الثاني. إحدى عشرة درجة. إلى

[1] – محمد راضي جعفر:الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1999، ص51.

اليمين شجرةُ تين كبيرة تُظلّل شجيرات خوخ[1].

في هذه المقطوعة يفر الشاعر إلى ماضيه البعيد ويستعيد ذكرياته لمكان ما كان في الماضي يذهب إليه ويتمتع بالنظر إليه وربما حتى اللعب هناك والتنزه بما أن المكان هو الحديقة الصغيرة ثم يواصل الشاعر في استرجاع ذكرياته السعيدة التي كان يتمتع بها في الماضي فيقول:

" وإلى اليسار كنيسة لو ثرية وعلى جانب
الدرج الحجري بئر مهجورة ودلو صدى وأزهار
غير مروية تمتص حبيبات من حليب أول الليل[2].

في هذه الأبيات يستمر الشاعر في ذكرياته وينتقل إلى رصف تلك الحديقة الصغيرة وتذكر كل ما كان فيها من أشجار وبئر وغيرهما مع عدم نسيان كل واحدة منها أين تقع، فهذا يدل بأن الشاعر قد كان متمسكا بهذا المكان ويحبه وكان يتردد إليه في الكثير من الأحيان إلى أن ظهر ذلك القانون الملعون إنه حضر التجوال، وربما الشاعر يستعيد ذلك المكان للتخفيف من وطأة الحاضر والواقع المؤلم، ذلك أن الإنسان كائن يتذكر ويستحضر صورا من الماضي لكن لمجرد التذكر لأنه لا يستطيع إعادة التجربة مرة أخرى فالذاكرة تستطيع خلق وهم العودة إلى الماضي لكنها لا يمكنها التحرر من ضغط الحاضر فبعودة الشاعر إلى ماضيه قد يجد فيه ما يخفف آلامه ويلطف من قسوتها.

وكما يقول برادلي عن الذاكرة<< إن الذاكرة تمثل بناءا مثاليا للماضي نعرف بها الماضي بوصفه امتداد المضمون الحاضر>>[3].

وإن استرجاع الذاكرة والعودة إلى الماضي، لا يكون إلا لمحض التذكر فلا يمك تجسيد تلك الذكريات في الواقع الحاضر فالذاكرة تبقى في الذهن، وربما تسترجع الذاكرة لاستجماع القوة والقدرة على المواجهة والتغيير ذلك لأنه وكما قلنا سابقا فإن << باختفاء

---

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص70.

[2] –المصدر نفسه، ص71.

[3] – محمد توفيق الضوي: مفهوم المكان و الزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة، منشأة المعارف بالإسكندرية– مصر، ط1، 2003، ص68.

الحدث في الماضي يستحيل استرجاعه واقعيا تماما إلا من خلال مجال الذاكرة المحدود الذي لا يرقى لنظام التحقيق الواقعي الملموس[1].

ويقول محمود درويش في قصيدة في الرباط:

" للطيور في ثغرة جدار. ولي...في
مدينة الرباط مكان شخصي هو مسرح محمد
الخامس, هناك تمتلئ نفسي بما ينقصها
من صفات. ما أعرفه عن نفسي- وهو قليل- يكفي
لأن أتوحد مع هذا المعبد المفتوح لمفاجآت
الإلهام. كأني هناك لا أقرأ ولا أنشد
بل أرتجل ما يملي علي الصمت والضوء الخافت
والعيون التي ترسل الإشارات, فأصوغها في
عبارات وأعيدها إلى أيد تمسك بها[2].

في هذه المقطوعة تعود الذاكرة الحرة بمحمود درويش إلى الرباط الذي فيه له مكان شخصي ذلك المكان الذي يحس فيه بالطمأنينة والراحة النفسية التي تمكنه من كتابة أشعاره، ذلك أن المكان له قيمة في ذات الشاعر.

ويقول الشاعر في قصيدة في مدريد:

شمس ورذاذ وربيع حائرة والأشجار
عتيقة وعالية في حديقة (رابية الطلبة)
الممرات مرصوفة بحصى يجعل المشي عليه
أقرب إلى تدريب ساخر على رقصة فلامنكو
والظلال مثقوبة بضوء مترجرج من علي
هذه التلة تطل على مدريد الواسعة المنخفضة
المنخفضة كحوض أخضر و نجلس، أنا [3].

---

[1] – محمد توفيق الضوي: مفهوم المكان و الزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة، ص71.

[2] –محمود درويش: أثر الفراشة، ص247.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

في هذه القصيدة يتطرق درويش أو تعيده الذاكرة إلى مكان أخر هو مدريد الذي التقى فيه بصديق له هو الآخر شاعر ويتذكر حينما ذهبا إلى حديقة للطلبة وقد شاركا الطلبة في التقاط الصور وفي الفرحة التي غمرتهما حين رؤية الطلبة يحملون كتبهم المترجمة إلى الإسبانية.

ويقول الشاعر في حنينه إلى نسيان:

" أن أتذكر أني سافرت. هل حصل فصام ما في ذاكرتي؟ هل انفصل وجودي النفسي عن وجودي الفيزيائي. خفت....واتصلت بصديق في ساعة متأخرة من الليل:أعاني من وعكة في الذاكرة...آية أنا؟ قال : أنت في رام الله سألته متى أتيت؟ قال: اليوم، و كنا معا بعد الظهر في حديقة ثاتشي. سألته لماذا لا أتذكر هل تظن أني مريض؟ قال ذلك مع مرض من نوع آخر. مرض ..إلى النسيان؟"[1].

في المقطوعة السالفة الذكر يحن الشاعر إلى النسيان وعدم التذكر، وذلك لأن النسيان شفاء ودواء لتخفيف الألم والمعاناة فأحيانا يكون من الأفضل وفي حاجة ماسة إلى النسيان، ذلك لأن التذكر الأمور المؤلمة والجارحة لا يزيد الجرح إلا ذميا وألما.

كما أن هناك نوع أخر من النسيان وهو نسيان الهوية للفلسطينيين وهذا ما يبحث عليه الإسرائيليين فهم يؤدون أن ينسى الفلسطينيين تاريخهم وهويتهم وهذا ما بدأت في تنفيذه والتخطيط له، فهي تود أن ينسى الفلسطينيين كيف كانت فلسطين قبل النكبة التي أصيبت بها من قبل الصهاينة، كما تقول بيير نورا أن <<الهدف الأكبر للذاكرة في إيقاف عجلة الزمن لسد الطريق على مفاعيل النسيان>>[2]. فالصهاينة يدركون تمام الإدراك أن نسيان الفلسطينيين لقومياتهم و تاريخهم يمكنهم من الاستيلاء على فلسطين.

---

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص80.

[2]– أحمد سعدي: الذاكرة و الهوية، مجلة الكرمل– بيروت، لبنان، 2003،ص2.

ويقول محمود درويش في قصيدته " الصبار":

ولما انطفأت الزهرة و نتأت الثمرة كأني
الصيار عاجزا عن صد سلاح الجيش
الفاتك. لكنه ظل حارسا مخلصا للعلامات
هنالك الصبار منازل مؤودة وممالك
ممالك من ذكرى. وحياة تنتظر شاعرا
لا يحب الوقوف على الأطلال، إلا
إذا اقتضت القصيدة ذلك[1].

في رأيي أن الشاعر في هذه المقطوعة يعود بالذاكرة إلى الصغر هو والأولاد أمثاله الذين كانوا يلعبون ويقومون بأشياء في ذلك المكان المملوء بالصبار وفي نهاية القصيدة وكأن الشاعر يريد نسيان الأمر ويتضح لنا أن الشاعر لا يحب النظر إلى الماضي المؤلم فالأفضل النسيان وعدم التذكر.

وبالرغم من كل هذا يبقى للذاكرة الأثر الكبير في ذاتنا وفي نفسنا، و يبقى النسيان كمادا للجرح والألم في بعض الأحيان، ففي بعض الأحيان لا يكون النسيان يعني نسيان الأمور الأليمة وهو الطريقة الصحيحة وذلك خصوصا إذا كان الواقع المعاش مشابها للماضي المؤلم فإن تذكر ذلك سيزيد الذات قوة وإرادة أكثر مما كانت، فمن دون الماضي لن يكون هناك حاضر ولن يكون هناك مستقبل كما يكون الحال بالنسبة للذاكرة والنسيان فهما متلازمين ولا يمكن فصلهما أو استقالتهما من عند الإنسان إن صح التعبير.

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص178.

1- الواقع المتسلط والواقع المأمول:

لكل شخص واقعه المعاش ولكل إنسان حلم يطمح إلى تحقيقه والوصول إليه، فالحلم في واقع مظلم مثله مثل القمر في الليالي الحالكة الظلام الذي يستنير به الإنسان طريقة في هذه الحياة، ويبقى الإنسان حبيب هاذين الروحين، فمن جهة لا يستطيع الخلاص من واقعه والفرار منه، ومن جهة أخرى لا يمكنه التخلي عن الأمل والحلم المنير ذلك حتى لا يقع الإنسان أسيرا لواقعه المظلم والحالك السواد.

فما على الإنسان إلا محاولة الموازنة بينهما لأنهما شقيقتين لا يمكن فصلهما أو التخلي عن أحدهما فهما منبثقتين من بعضهما البعض، في بعض الأحيان يحس الإنسان وكأن جسده يريد الانفجار والاندثار ذلك جراء ما يعيشه وما يحسه من واقعه وما يفرضه عليه، من حقائق مؤلمة وظالمة، ومن نظرة أخرى يكمد هذا الجرح الدامي ذلك الحلم أو ذلك الواقع المأمول الذي يتطلع إليه الإنسان ويرغب فيه وفي محاكاته وحتى معايشته هذا بصفة عامة أم بصفة خاصة أو بالرجوع إلى موضوع بحثنا أو إلى الشاعر محمود درويش أو كما يلقب بشاعر القضية الفلسطينية هذه الأخيرة التي تعيش واقع مأساوي.

فالدماء تسفك بدون مبرر ودون شفقة بغض النظر عن الاعتداءات الأخرى والضرب والبطش بكل أنواعه، فالأشلاء تتطاير وتتناثر في كل الأماكن، فالشعب الفلسطيني أصبح أسير تلك الأوضاع المزرية والأحزان والمآسي في كثير من الأحيان ولكن يبقى لديهم شعاع ينير واقعهم المظلم ألا وهو الأمل والحلم بحياة أفضل، فلم يبق لهم سوى التمسك بشعاع الأمل والتطلع إلى مستقبل أفضل، فمحمود درويش الذي يعتبر جزء من هذا الشعب كانت حياته مليئة بالمآسي والأحزان ككل الشعب الفلسطيني، فقد تفتحت عينا الشاعر منذ صباه على مأساة شعبه، وقد عاش تفاصيلها حرفا، حرفا واكتوى بنارها وهو ما يزال متعثر في طفولته بقرية البروة الذي حرمه من متعها و من أحلامها الوردية[1].

[1]- عبد السلام المساوي: جماليات الموت في شعر محمود درويش دار الساقي- بيروت، لبنان،ط1، 2009، ص11.

فالواقع الذي يعيشه الشعب الفلسطيني ليس كواقع الشعوب العربي الأخرى فكلما خرج الشعب الفلسطيني من مأساة دخل في مأساة أخرى ، فالمآسي غير منتهية والطفولة لم تعد موجودة ذلك لأن الطفل يتحمل العبء والمسؤولية منذ الصغر وبحمال معاملة الرجال ويحكي محمود درويش عما عاشه في قريته البروة وعن مهاجمة الصهاينة لها و طردهم منها دون رحمة وشفقة فيقول:<< فالرصاص الذي انطلق في تلك الليلة من صيف 1948 في مساء قرية هادئة (البروة) لم يميز بين أحد ورأيت نفسي وكان عمري يومها ست سنوات، أعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء، فالجبال الوعرة مشيا على الأقدام حينا وزحفا على البطون حينا،وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش.وجدنا أنفسنا في بلد اسمه لبنان وحين صحا ذلك الطفل الممزق الثياب من التعب والرهبة كان رأسه يزدحم بالأسئلة التي هاجمته ودفعة واحدة وبلا تسلسل، ومنذ تلك الليلة انقلبت الصفحة الخاصة لعالم الطفولة>>[1].

فالشعب الفلسطيني أصبح محروم من كل شيء في هذه الدنيا وحتى أبسط الحقوق لكن محمود درويش لم يقف عند هذا الحد أصبح شاعر للمقاومة الفلسطينية أدرك الشاعر بأن في وسع القصيدة العظيمة أن تنهض من الخراب، إذا كان يحركها أمل عظيم[2].

فرغم كل ما يعيشه محمود درويش والشعب الفلسطيني إلا أنهم متمسكين بالأمل والحلم، ويمكن القول بأن الحلم حروب من الواقع خاصة إذا كان الواقع مثل واقع الفلسطينيين، فهو بمثابة تفويض للإنسان عن ذلك الواقع الحقيقي المؤلم والمأساوي.

وبالرغم من هذا نجد أن الشاعر محمود درويش في المجموعة الشعرية" أثر الفراشة" يجسد هذا الواقع و كذلك الحلم الأمل في العودة إلى الأراضي الفلسطينية والبقاء في كنفها إلا أنه يبقى إنسان وفي بعض الأحيان يحس بالخيبة بخيبة الذات ما يجعله يفقد

[1]– محمد كروب: حوار مع محمود درويش، مجلة الطريق، ع2، 2001، ص145.

[2]– محمود درويش: أنقذونا من هذا الشعر، مجلة الكرمل– بيروت،ع6، 1982، ص.13

الأمل في الحاضر وفي المستقبل وهذا مما يجعله أن يوضح القول أسيرا لواقعه المؤلم والمظلم.

يقول محمود درويش في قصيدة لم أحلم:

منتبها إلى ما يتساقط من أحلامي، أمنع
عطشي من الإسراف في طلب الماء من
السراب، أعترف بأني تعبت من طول
الحلم الذي يعيدني إلى أوله و إلى أخري[1].

في هذه المقطوعة الشعرية نرى بأن محمود درويش أصيب بخيبة فهو يرى بأنه قد تعب من الحلم ومن طول أمده دون فائدة ثم يواصل فيقول:

دون أن نلتقي في أي صباح، سأصنع
أحلامي من كفاف يومي لأتجنب الخيبة
فليس الحلم أن ترى ما لا يرى، على
وتيرة المشتهى، بل هو أن لا تحلم أنك
تحلم، لكن، عليك أن تعرف كيف تصحو[2].

فاليقظة هي نهوض الواقعي من الخيالي منقحا، فالشاعر في حدة الموضوعية يرى بأنه يجب ألا يصاب بالخيبة وأن يكون حلمه من أيامه ومن واقعه وزن يمزج بينهما لدرجة أنك لا تفرق بين إذا كان حلما أم لا.ويقول الشاعر في قصيدة " موهبة الأمل":

كلما فكر بالأمل أنهكه التعب و الملل
واخترع سرابا، وقال: بأي ميزان أنز
سرابي؟ يحث في أدراجه عمن كان
قبل هذا السؤال، فلم يعثر على مسودات[3].

وفي هذه المقطوعة كذلك يصلب بخيبة الذات ويفقد الأمل في هذه الدنيا ويحس وكأن جسده انقسم إلى نصفين بين واقعه المر والمؤلم وبين أحلامه ماله التي لم تتحقق،

---

[1]–محمود درويش، أثر الفراشة، ص62.

[2]–المصدر نفسه، ص نفسها.

[3]–المصدر نفسه، ص 60.

فمن جهة يرى وينظر إلى واقعه المملوء بالمآسي والأحزان ومن جهة أخرى يريد أن يتغير هذا الواقع وأن يتحول إلى ما يريده أن يكون.

ويقول كذلك:

الناجم عن لا مبالاة آلهة بنا....تركتنا
نعتمد على مواهبنا الخاصة في تفسير
الضباب، وقال : ليس الأمل مادة ولا
فكرة، إنه موهبة، تناول قرصا مضادا
لارتفاع ضغط الدم، وونسي سؤال الأمل...
وأحس بفرع ما ...غامض المصدر؟[1].

إن محمود درويش يرى بأن الأمل موهبة من الله، وأننا لا نستطيع خلقه وفي هذه المقطوعة وخاصة في البيت الأخير فإنه يحس بفرح وارتياح فهذا هو ما يفعله الأمل والحلم وذلك بسبب الواقع المؤلم فيجعل الأمل الشاعر فرار من الألم والتماسا للراحة وإن كانت في الحلم والخيال[2].

فالحلم يعتبر كدواء يكمد جراح الواقع وآلامه، ويجعل الإنسان متمسكا بواقعه وبالحياة سعيا منه إلى الحلم بواقع وحياة أفضل

كما يتحدث محمود درويش عن الواقع اليومي أو الواقع المر الذي يعيشه الفلسطينيين فيقول في قصيدة روتين:

الله. ومازال الأفراد إدا صحوا أحياء
قادرين على القول: صباح الخير. ثم يذهبون
إلى أشغالهم الروتينية: تشييع الشهداء
ولا يعرفون إن كانوا سيعودون سالمين إلى

[1]– محمود درويش، أثر الفراشة ، ص62.

[2]– محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب– دمشق، ط1، 1999، ص51.

ما تبقى من بيوت تحاصرها جرافات ودبابات وإشجار[1].

في هذه القصيدة يروي الشاعر ما يفعله الأفراد الفلسطينيين والواقع الذي يعيشونه فهو يصور لنا جزء من هذا الواقع كتشييع الموتى والخف والقلق الذي يعيشه الشعب الفلسطيني وعن الجارفات والدبابات التي تحاصر المنازل فعند نومهم يعتقدون بأنهم لن يرو الدنيا من جديد، وإذا خرجوا فهناك احتمال ضئيل أنهم سيعودون إلى منازلهم و بيوتهم و يتحدث محمود درويش عن الحلم في عدم سماع صوت الرصاص وخبر الموت وعن الهواء الصافي المنعش الذي يتمنى أن يحس به كل صباح عن فتح النافذة وعن أثر الكومات التي يصاب بها وغيرها من الأمور المعتادة التي كان يراها ويحس بها في كل يوم دون استثناء فالحلم هو محاولة التخلص والتحرر من كل ما يثير القلق والضغط والإحباط كما أن عالم الحلم يقع برمته في ذهن الحالم أي أنه يعيش على هامش الواقع البشري[2]. ونجد الشاعر في موضع أخر وفي قصيدة أخرى تحت عنوان " كما لو كان نائما " يقول:

على ضوء فاتر وسماء صافية وهواء معافي
تحسس جسده، عضوا عضوا، فوجده
سليما، نظر إلى الوسادة ولم ير شعرا
تساقط في الليل، نظر إلى الملاءة
ولم يرد ما، فتح جهاز الترانزستور
ولم يسمع خبرا عن قتلى جدد في العراق[3].

في هذه المقطوعة يجسد الشاعر الحلم الذي يرغب فيه الفلسطينيين أو بالأحرى كل الشعوب المحتلة التي تطمح إلى أبسط الحقوق كالهواء والضوء وعدم الخوف، وكما جسد لنا الطمع في الحياة هذه الكلمة التي أصبحت عندهم ليست حق وإنما هي طمع في أشياء

---

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص90.

[2]– ضياء خضير: شعر الواقع والكلمات، ص82.

[3]– محمود درويش: أثر الفراشة، ص138.

وحقوق أخرى غير حقوقهم. كما أنه في هذه المقطوعة جعل الشاعر الحلم ليس حلما شخصيا بل لا حلم جماعي وذلك حيث يقول:

ولم يسمع خبرا عن قتلى جدد في العراق
وغزة وأفغانستان، ظن أنه نائم فرك
جفنيه أمام المرآة وتعرَّف إلى وجهه[1] .

فحلمه لا يقتص على تغيير واقعه فقط بل واقع الشعوب العربية كلها دون استثناء، ويستمر فيقول:

وجد السطر مكتوبا على ورقة بيضاء:" أنا
حي على الرغم من أنني لا أشعر بالألم"
لم يظن هذه المرة أنه نائم كان متأكدا[2].

من ذلك وفي الأخير يرى بأن هذا الحلم ليس هو الواقع الذي كان يعيشه الذي يعتقد أنه كان يعيشه ذلك لان واقعه مخالف لهذا الحلم لأن واقعه مملوء بالألم والأحزان، وأنا أرى الشاعر وكأنه حدث اصطدام إن صح التعبير بين الواقع المعاش وبين الحلم الذي يطمح إليه، وكأنه حدث انقسام في الجسد بين الروحين:

الأولى واقعه المؤلم وهو الحقيقة المرة التي لا غبار عليها.

والثانية واقعه المأمول وما يراد أن يكون " الحلم: ويقول محمود درويش عن الواقع الفلسطيني: " لم تتوحد الوحوش على جسد كما توحدت على الجسد الفلسطيني، لمير عام واحد في تاريخ الشعب الفلسطيني دون مذبحة لترو بعض أختام الموت على الجسد[3].

والمتمعن لقول محمود درويش سيدرك بأنه لا يزال متمسكا بالأمل هو والشعب الفلسطيني أو كما يسميه في هذا القول الجسد المعجزة وله الحق في هذه التسمية، فإن ما

---

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص139.

[2]–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– محمد فكري الجزار: الخطاب الشعري عند محمود درويش، ص 156.

يمر به الشعب الفلسطيني ليس بالأمر الهين ولو لا التمسك بالأمل والحلم لا بقيت فلسطين صامدة إلى حد الآن.

يقول محمود درويش في قصيدة الجدار:

أفعى معدنية ضخمة تلتف حولنا، تبتلع
جدراننا الصغيرة الفاصلة بين غرفة النوم
الحمام والمطبخ وغرفة الاستقبال، أفعى
لا تسعى بخط مستقيم لئلا تتشبه
بنظراتنا إلى أمام، تتلوى و ترفع كابوسها
المصدع من فقرات اسمنت مقوى بحديد
مرن...يسهل عليها الحركة إلى ما تبقى[1].

في هذه لمقطوعة يجسد الشاعر جزء من الاعتداء على الفلسطينيين يكمن في الجدار الفاصل غزة وفلسطين، وقد شبه فلسطين بالبيت أو المنزل والإسرائيليين يحاولون فصل غرفة عن بعضهم البعض، ففلسطين هي جسد واحد ولا يمكن فصل عضو منه و إلا اختل وذبل ثم يواصل الشاعر قوله وينتقل من الواقع إلى الحلم والتمسك بالأمل فيقول:

بالبنادق و البيارق و نراها في الليل
تتلألأ بكواكب تحدق إلينا بحنان، و نرى
أيضا ما خلف جدار الأقصى، نرى
حراس الجيتو خائفين مما نفعل خلف
ما تبقى لنا من جدران صغيرة....نراهم[2].

وفي المقطوعة السابقة الذكر نلاحظ فيها وكأن هناك ميزة تحدى للإسرائيليين تحمل الأمل والحلم للفلسطينيين وأن هناك دور ما من يرعاهم و يحميهم وسينصرهم على العدوان الإسرائيلي ، ومن الطبيعي أن يفقد الشاعر الأمل في الحياة، ففي الكثير من

[1]–محمود درويش: اثر الفراشة، ص84.
[2]–المصدر نفسه ، ص185.

الأحيان يفقد الإنسان الأمل في كل شيء وحتى يعيشون الكثير من القهر والألم والظلم والفساد.

فالمآسي عندهم غير منتهية والآلام متواصلة بالإضافة إلى الفقر وسوء الأوضاع الاجتماعية وحتى الاقتصادية والسياسية ولكن بالرغم من كل هذا يبق هناك بنصيب من الأمل والحلم وهو تغيير الوضع السائد ولسعي للوصول إلى الهدف والحلم الأسمى الذي يشمل جميع الفلسطينيين دون استثناء كبيرهم أو صغيرهم ألا وهو الاستقلال والحصول على الحرية التي طال انتظارها.

2-الشاعر والأشياء:

نظم شاعرنا لكبير محمود درويش في" ديوانه أثر الفراشة " قصائد منها ما هو نثري ومنها ما هو شعري موزون، وقد وظف فيها صورا كثيرة يبرهن لنا عن حالته و حالة شعبه الفلسطيني إثر الواقع المؤلم الذي يعيشه تحت حصار العدو الصهيوني، وقد ساعدته هذه الصور في إبراز ونظم قصائده والإبداع فيها، ولهذا فالشاعر له صله وعلاقة وطيدة بالمحيط الذي يعيش فيه، وهي علاقة تأثير وتأثر فإن محمود درويش قد تأثر بالطبيعة وجعلها صورة تكشف لنا عن أفكاره وهمومه وعلاقته بها في القصائد التي جعلها وفق هذه الصورة.

أ-صورة الطبيعة:

لقد ساهمت الألفاظ والعبارات المستوحاة من الطبيعة على جعل الشاعر ويخرج ما كان بداخله وما يريد الوصول إليه أي العبرة أو المغزى التي تعبر عنها تلك الكلمات من مكونات موجودة داخله لذلك لجأ إلى صورة الطبيعة وتأثر بها، فألفاظ الطبيعة لها دلالات وهذه لها معان لذلك فالشاعر استخدم هذه الصور باعتبارها أداة لنقل أفكاره إلى المتلقي فجسد صورة الطبيعة في نظمه لقصائد كقصيدة هدير الصمت"، "نهر بموت من العطش"، أرض فضيحة، شجر" الزيتون" سماء صافية، حديقة خضراء، وقصيدة الحنين إلى نسيان".

وقد بينت لنا هذه القصائد ما يريد الشاعر إلا فصاح عنه، فهو يعيش حالة نفسية من جراء المعاناة والآلام التي يعيشها شعبه الفلسطيني، فالصورة التي يستخدمها في شعره تؤدي إلى تجديد اللغة وتوسيع حقل الدلالات، وصارت رؤية جديدة لأشياء الواقع وموضوعاته،<<فالشاعر الذي يعتمد الصور هو فعل نقد وفعل إضاءة لجوهر الوجود والصورة بهذا المعنى–رؤية فكرية و عاطفية في لحظة من الزمن>>[1].

لذلك فإن الشاعر يستخدم أسلوب تفكير وتعبير عن البيئة المحيطة على هيئة هذه الصورة إذ يستعيرها من الطبيعة ليعبر عن موقفه إزاء الواقع وفق مثله الحالية، فمن الضغط اليومي والمعيشي داخل فلسطين أي التي يعيشها الفلسطيني يمنح الشاعر محمود درويش" حيوية الصراع بين هذه الصور وموقفه الفكري ليكونا بينه وحدة أساسية في شعره، وتتكون من ألفاظ وكلمات مفهومة لدى المتلقي" ولكي تكون القصيدة مفهومة وواضحة لا بد من تدخل عنصر جديد أو عناصر جديدة تشير إليها الكلمات بوصفها صورا تشكل بؤر مثيرة وتفاعل بين الشاعر واللغة التي يستخدمها في قصيدته[2].

بما أن الشاعر له علاقة بالطبيعة فإنه استخدم صور من الطبيعة لأنها تعتبر أشكالا واضحة في القصيدة فتعوض في الأعماق أي تجعلنا نصل من خلال هذه الصور إلى أعماق الشاعر فنفهم الحالة التي يعيشها إثر الواقع وذلك من خلال توظيفه لهذه الألفاظ في شعره"فالشعر بهذا التصور يكون ساحة يصطحب فيها الجدل بين عناصر الثبات وعناصر الحركة، ساحة تغنى فيها عناصر وتقتص من رؤى ومقدار ما تحتوي من إمكانات الكشف والتغيير"[3].

فمن هذا المنطلق يمكننا أن نقول أن الصور والألفاظ التي يستخدمها الشاعر الدالة على الطبيعة تجعل القصائد واضحة فتؤدي دورا كبيرا في إحاطتنا بهذه المنطلقات فغن

---

[1]– محمد فكري الجزار: الخطاب الشعري عند محمود درويش،ص154.

[2]–اعتدال عثمان:إضاءة النص، قراءات في الشعر العربي الحديث،ص66.

[3]– المرجع نفسه، ص80.

الشاعر قد نظم قصائد منها ما هو نثري ومنها ما هو شعري موزون (شعر التفعيلة) كانت بعض عناوينها من صورة الطبيعة وقد اعتمد في التعبير عن حالته النفسية وعن الواقع المر والمؤلم الذي يعيشه شعبه عن طريق ألفاظ تكون على شكل صور من الطبيعة ومن بين القصائد حيث يقول فيها:

كان نهر هنا
وله ضفتان
وأم سماوية أرضعته السحاب المقطر
نهر صغير يسير على مهله نازلا من أعالي الجبال
يزور القرى و الخيام كضيق لطيف خفيف
ويحمل للفور أشجار دفلى و نخل[1].

فمن خلال تصفحنا لهذه المقطوعات من لقصيدة نلاحظ أن الشاعر قد عبر عن مضمون القصيدة بألفاظ من الطبيعة فمن خلال العنوان نجد أنه قد عبر عن صورة من الطبيعة فنهر يموت من العطش فالنهر يحتوي على الماء، ويقصد به من خلال العنوان على حالة الشعب الفلسطيني وواقعهم المعاش فهم يموتون من العطش ولذلك قال نهر من الطبيعة فجعله رمز الهم، فقد رمز للشعب الفلسطيني بالنهر الذي يموت من العطش لكن النهر لا يموت وإنما يحتاج إلى وجود الماء فيه، أما من خلال المقطوعات الشعرية نلاحظ أن النهر له ضفتان، وأم هي السماء أرضعته من السحاب المقطر أي من قطرات الماء التي تخرج من السحاب، فهناك نهر صغير يسير بمهل ينزل من أعالي الجبال لكي تستفيد منه القرى والخيام سقي أشجار الدفلى والنخل.

فالشاعر يعطينا صورة الطبيعة ويجعلها تنطبق على صورة الشعب الفلسطيني إثر الواقع الذي يعيشه فهم بمثابة النهر الذي يموت من العطش لفقدانه الماء، فقد عبر عن صورة الطبيعة بألفاظ وكلمات من الطبيعة فمن بينهم نجد (النهر، السحاب، السماء، أعالي الجبال، أشجار،دفلى، نخل) فكل هذه الألفاظ تمثل صورة الطبيعة، في الوقت نفسه يشير

[1]– محمود درويش: أثر الفراشة، ص81.

بها الشاعر إلى الوضع السائد والشقي في فلسطين، فهو يحاول أن يتبين لنا المأساة الفلسطينية من خلال تلك المفردات التي وظفها في شعره، فجعل صورة الطبيعة معبر وعن الحالة الفلسطينية وواقع الوطن المحتل من طرف الصهاينة، ونجد أيضا صورة الطبيعة في قصيدة أخرى نثرية عنوانها" هدير الصمت" يقوله:

"أصغي إلى الصمت هل ثمة صمت؟ لو نسينا اسمه، وأرهقا السمع إلى ما فيه،لسمعنا أصوات الأرواح الهائمة في القضاء، والصرخات التي اهتدت إلى الكهوف الأولى، الصمت صوت تبخر واختبأ في الريح، وتكسر أصداء محفوظة في جرار كونية، لو أرهقنا السمع لسمعنا صوت ارتطام التفاحة بحجر في بستان الله....ولو أرهقنا السمع إلى ما وراء حجاب الصمت، لاستمعنا إلى أحاديث الليل بين الأنبياء وزوجاتهم، وإلى إيقاعات الشعر الأولى....وإلى حيرة الفرد حيث فقر من الشجرة إلى عرش القبيلة....ولو أرهقنا السمع إلى صوت الصمت.... لصار كلامنا أقل"[1].

لقد جعل الشاعر هنا الصمت في صورة الطبيعة، فجعل له هدير وهي مستوحاة من الطبيعة لكي يستطيع أن يوصل ويبرهن لنا لو كان للصمت صوت لاستطعنا أن نعرف كل ما يجري في هذا الواقع، وإلى الأصوات الكامنة في النفس البشرية، وإلى ما يخبئه ذلك الصمت من مكونات في نفس الشاعر، ولاستطعنا أن نكشف من خلال هذا الصمت عن الحالة النفسية التي يعيشها الشعب الفلسطيني في وطنهم الحبيب، ففي هذا النص الشعري يبين لنا أنه إذا كان ثمة صمت أو نسينا بأنه موجود لأسعفنا الحظ في السماع إلى أصوات الأرواح الهائمة في الفضاء، وإلى الصرخات التي اهتدت إلى الكهوف الأولى فالصمت إذن صوت تبخر واختبأ في الريح فكل هذه الألفاظ (هدير، الريح، التفاحة، الشجرة) ألفاظ تعبر عن الطبيعة.

وقد ساعدت الشاعر في توظيف صورة الطبيعة لكي يعطينا صورة قريبة أثر إلى ذهن المتلقي حتى يمكنه من فهم ما يريد أن يوصله ويبرهن عليه في قصيدته فالشاعر

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص74.

يبين لنا أيضا بطريقة غير مباشرة أنه لا يمكنه أن يصمت فإذا صمت لا يمكن أن يعرف أي أحد ما يعانيه، ولا يستطيع الصمت أن يعبر عما في داخله من أحاسيس وعواطف ومشاعر إنسانية لذلك فقد ساهمت صورة الطبيعة في توليد مؤشرات ودلالات ذات معان لتحقيق التغيرات المحتملة في الواقع أولا و في الشعر ثانيا[1].

لهذا نجد محمود درويش يقدم للواقع مفردات كالمفردات السابقة الذكر فقد ساعدته اللغة على الإبداع في قصائده" باعتبار أن اللغة الشعرية تشكيلية عليا، فإنها ضمنيا تشظي الدال ليتوالد المدلول ضمن تشعيبات تتكاثف وسبق وأن أشرنا إلى أن هذا الانفجار هو حركة القضاء النصي المتمثل بدينامية الطاقة إلا بداعية في النص المعاصر[2].

إن للغة تبرز لنا تفاصيل ومضمون القصيدة، فتنقل لنا هذه الصور بطريقة سهلة، فتساعد الشاعر على الإبداع في قصيدته لذلك فإن في القصائد السابقة الذكر نجد أن الشاعر قد أبدع في توظيفه لصورة الطبيعة من خلال تصفحنا للعبارات والألفاظ الدالة على ذلك.

وهذا ما تدل عليه أعماله الشعرية الأخرى كقصيدة " أرض فضيحة" و"شجرة الزيتون"، و"سماء صافية، حديقة خضراء" فهي كلها تعبر عن صورة الطبيعة فنجده مزج بين ذاته وبين الطبيعة لينجز فضاء النص أي أنه يقوم بمحاورة خارجية مع الطبيعة" وهي ما ظهر من المحاورة الداخلية،طافيا على الفضاء المكتوب عبر المتخارج أو الموضوعي المنعكس على الذاتي، والنابع من أعماقه في آن معا والمستنسخ من مفردات الطبيعة[3].

لهذا فقد هذه القصيدة مستوحيا ألفاظها من الطبيعة التي يعيش فيها، لأنها أحيانا تنطبق على الحالات النفسية التي يعيشها الإنسان، فكان لها الدور الفعال في إبراز

---

[1]– غالية خوجة: قلق النص، ص233.

[2]– المرجع نفسه، ص233.

[3]– المرجع نفسه، ص289.

الصورة والحالة والأداء لدى الشاعر ومن النماذج أيضا التي استخدمها في قصائده على صورة الطبيعة قصيدة الزيتون حيث يقول فيها:

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك.هي سيدة السفوح المحتشمة
بظلها تغطي ساقها، و لا تخلع أوراقها أمام عاصفة
تقف كأنها جالسة، و تجلس كأنها واقفة، تحيا أختا[1].

لقد لجأ شاعرنا الكبير محمود درويش إلى قصيدة شجرة الزيتون لأنها ترمز إلى الحنين والتواضع ولونها لون السلام لا هو أخضر ولا هو فضي تلمس الشاعر بواسطتها لإمكانات التعبير عن قضيته الوطن، باعتبارها صورة من صور الطبيعة لأن الإنسان له علاقة بهذه الشجرة لأنه يستفيد منها فهي مألوفة عند أي إنسان، فالألفاظ والعبارات التي عبر بها الشاعر عبارات مأخوذة من الطبيعة؛ وعليه فالأفكار أو المضمون الذي يريد الشاعر الوصول إليها يكون مفهوما من خلال توظيفه شجرة الزيتون، حيث الألفاظ والصور الذي وظفها في هذه القصيدة يستطيع القارئ المتلقي أن يفهم مضمونها التي يريد الشاعر أن يوصلها إليه عن طريق صورة الطبيعة التي مكنتنا من فهم الحالة النفسية والظروف المعيشية إثر الواقع الذي يعيشه وطنه، فشجرة الزيتون أعطت صورة واضحة للمتلقي كي يعرف ما يريد الإفصاح عنه من خلال الألفاظ(شجرة الزيتون، الزيت النوراني، عاصفة خضراء الظل، أغصانها، حجر الحفرة).

كل هذه الألفاظ تدل على صورة الطبيعة التي ساعدت الشاعر على التعبير عما يعانيه بطريقة غير مباشرة، وقد استخدم هذه الألفاظ لأنها أكثر قربا إلى ذهن المتلقي ما دام له علاقة أيضا بالطبيعة فهو يفهم ما يؤول إليه الشاعر، فجعل شجرة الزيتون كإنسان لا تبكي ولا تضحك ولا تصرخ، وجعلها أيضا كالإنسان الذي يحارب ويعيش واقع مؤلم تكون نهايته القتل والإعدام، حيث أنها تحاصره بالجارفات ويخرجونها من سلالة الأرض من قبل الجنود الذين انتصروا عليها بانقلابها الذي صار فرعها في الأرض وجذرها في

[1]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص205.

السماء، فلم تصرخ ولم تبك، فقد أعدمت نهائيا، فقد أعدم جنديا معها بحجر، فاستشهدا معا أي أنه دفن هناك مكان الشجرة، باعتباره سيصبح شجرة زيتون شائكة ثم تصبح خضراء ولذلك فإن الشاعر استخدم صورة الطبيعة باعتبارها المحيط و البيئة التي يعيش فيها فحالته النفسية والواقع الذي يعيشه وطنه الفلسطيني يمكن أن ينطبق على الطبيعة وما فيها، فما يوجد في الطبيعة أيضا يعاني مما يجري في الطبيعة " فكل مجموعة اجتماعية تسعى إلى فهم الواقع انطلاقا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والتربوية"[1].

لذلك يمكننا القول أن الفكرة امتدت من خلال توظيف الشاعر لصورة الطبيعة في القصيدة "شجرة الزيتون" وتمتد الفكرة أكثر في قصائد أخرى من هذا الديوان كقصيدة سماء صافية، حديقة خضراء وقصيدة أرض فضيحة " وقصيدة الحنين إلى نسيان" حيث يقول فيها:

"ظلام وقفت عن السرير ممسوسا بسؤال. أين أنا؟ بحثت عن جسدي فأحسست به يبحث عني، وبحثت عن مفتاح النور لأرى ما يحدث لي، فلم أجده، تعثرت بكرسي فأسقطته وأسقطني على ما لا أعرف، و كأعمى يرى بأصابعه الأشياء فتشت عن جدار استند إليه، فارتطمت بخزانة فتحتها فلامست يدي ثيابا شممتها فعثرت على رائحتي، أدركت أني في حيز من العالم يخصني، وانفصل عني وانفصلت عنه....تابعت البحث عن مفتاح النور...تعرفت إلى أشيائي: هذا سريري وهذا كتابي، و هذه حقيقتي، و هذا الذي في البيجامة هو أنا تقريبا فتحت النافذة، وسمعت نباح كلاب في الوادي"[2].

من خلال هذه القصيدة نلاحظ أن محمود درويش يعيش حالة نفسية جعلته يكاد يفقد ذاكرته فأصبح يخلط بين ما هو واقع وبين ما لم يقع، فهو في هذه القصيدة كما يقول يبحث عن مفتاح النور أي انه يريد أن ينسى الواقع والأحداث التي تقع له ولشعبه الفلسطيني، وبما أن له علاقة كبيرة بالطبيعة فقد استخدم في قصيدته هذه صور كثيرة

[1]–محمد فكري الجزار: الخطاب الشعري عند محمود درويش، ص217.

[2]–محمود درويش: أثر الفراشة، ص78.

منها " الكلاب في الوادي"، ماء بارد، فواكه طازجة، حديقة " فقد ساعدته على إخراج ما هو كامن بداخله وجعلته يعبر بطريقة واضحة للقارئ المتلقي، فلا يمكنه أن ينفصل عنها فهي تسايره منذ وجوده في المحيط أو الواقع الذي يعيش فيه ولذلك لا يستطيع الانفصال عنه، فهو يحيي الحياة ويعيد بنائها بواسطة صورة الطبيعة، فمن خلال تصفحنا لهذه القصيدة نجد بأنه وما إن تستيقظ الذكريات تحي تبدأ في الانصهار، فيبدأ الشاعر بالنسيان أي انه يريد أن ينسى كل ما حدث له وما يحدث له باعتبار اللغة هي الوسيط بين الشاعر وتعبيره عنها، الزمان يمر عليها، فتسقط في القلب سهوا وتصبح مطاردة بالنسيان و النسيان خطر يهدد حياة الذكريات وينذر بضياعها[1].

فالشاعر يريد أن ينسى الذكريات التي حدثت له، فهي تفر منه وتسقط عند الآخرين، لأن الوطن ليس جغرافيا فحسب، وإنما كذلك حالة نفسية وذهنية لديه، فصورة الطبيعة تمكنه من التواصل في التعبير فهي لها علاقة به فهو يذكرها ولديه منها جوهر يوصله إلى ذهن المتلقي حتى يفهم الحالة النفسية التي يعيشها إثر شعبه الفلسطيني الذين عاشوا ولا يزالون يعيشون واقع مؤلم، و لهذا فإن محمود درويش في القصائد السالفة الذكر التي استخدم فيها صورة الطبيعة فإنه عبر بلحن تتوق له ذاته وصولا إلى توق أعمق، تلك عناصر الطبيعة المستخدمة في قصائده والتي أقيم عليها كالريح،والنهر والمطر الحديقة، الفواكه، الشمس، الأرض، السماء، التربة، الماء، العواصف، وغيرها من عناصر الطبيعة هي التي قامت باتصال الأفكار التي أراد الشاعر أن يوصلها إلينا بطريقة غير مباشرة في قصائده ورسم فيها لنا الصورة الذهنية "فهي تتشكل في الزمن الكوني، وفي الزمن الفلسطيني بوصفه تاريخا وذكريات شخصية جماعية من ناحية، وفي المكان الدوار(المحيط الذي يعيش فيه) منذ بدء الخليقة حتى المنتهى مكن ناحية ثانية[2].

---

[1]–اعتدال عثمان:إضاعة النص، ص108.

[2]– المرجع نفسه، ص111.

لذلك فإن شاعرنا محمود درويش من خلال هذه المعرفة الكونية للمحيط الذي يعيش فيه فإن الأرض لا تحد بحدود الأرض ذاتها أي حدودها الفعلية على الخريطة، وإنما تصبح لديه حالة ذهنية ونفسية–كما أشرنا من قبل– لها امتدادات ذات دلالات تبرزها صورة الطبيعة وعناصرها ولهذا فإن التعامل مع جوهر الحياة من جانبها الطبيعي هو الذي يوصل إلينا المدلولات المرادة من قبل الشاعر.

وفي النهاية يمكننا القول أنه " بتضافر تواتر السمات وتغلغلها في معظم مقاطع القصائد السابقة الذكر مع سائر مفردات القصيدة على الرغم من تعدد مستوياتها، و تعدد الأصوات فيها، على نحو يؤدي إلى انبثاق " فلسطين" ذهنية في وعي القارئ، تكون لها ملامح الوطن الأم، لكنها– في الوقت نفسه– وطن آخر يحمل ملامح الشاعر والصبي والعاشق والنبي الذي تقمص جسد الأرض فأصبح امتدادا شعريا لترابها، وكهوفها، وجبالها وترابها وشمسها، وقمرها، ونهرها وعواصفها، وأمطارها، ونورها، وحدائقها وغيرها من عناصر الطبيعة المتعلقة بالشاعر[1].

ولهذا نجد شاعرنا الفلسطيني محمود درويش يربط بين المكان " فلسطين" و السمات الجغرافيا لعناصر الطبيعة وتجلياتها الشعرية في نسق جديد في عالم ملغز أي به دلالة، فمحمود درويش ليس مسكونا بالمكان وحده" فلسطين" وإنما هو مسكون كذلك بروح المكان (صورة الطبيعة وعناصرها).

ب– صورة الموت:

الموت هي نصيب كل شخص، كل كائن على وجه هذا الكوكب وحتى الملائكة والشياطين فمآلهم الموت إلا الخالق، فالموت أعظم ما في الحياة وبه تحدى الله عز وجل الخلق أجمعين، وإن صح التعبير فالموت أنواع وأشكال بحسب الحياة، فمنها ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات كقوله تعالى:<< يحي الموت بعد موتها >>

[1]–اعتدال عثمان: إضاءة النص، ص113.

ومنها زوال القوة الحسية كقوله تعالى:<<يا ليتني مت قبل هذا >>، ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة كقوله تعالى:<< وبآيته الموت من كل مكان وما هو بميت>> ومنها المنام كقوله تعالى: <<والتي تم تمت في منامها >> وقد قيل: المنام الموت الخفيف والموت النوم الثقيل وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال ....والمعصية وغير ذلك[1].

فالموت نهاية الحياة الدنيا بمرها وحلاوتها فالموت أمر حتمي ليس على الإنسان وحده بل كما قلنا سابقا على كل المخلوقات الكائنة على هذا الكوكب الذي مر عليه الكثير، الكثير من الزمن.

والإنسان أثناء مكوثه في هذه الدنيا يمر بالعديد من التقلبات والمتناقضات، فهناك من يعيش البؤس والشقاء والمآسي مما يجعله يميل إلى الموت ويرغب فيه لكن << حينما يدنو الموت لا يعود أحد يرغب في الهلاك ولا تعدوا الشيخوخة عبئا>>[2].

فالله تعالى خالق كل شيء، فكما خلق الإنسان وجعله يعيش حياته في هذه الدنيا كما جعل نهاية لحياته الدنيوية فالإنسان ليس سوى مخلوق عابر في هذه الدنيا ومآله في النهاية الموت، هذا الأخير الذي ترى أنتيجونا بأن هناك موت قبل الأوان، وهو أمر يمكن احتماله حينما تكون الحياة حافلة بالمتاعب، وهي لا تعني الألم العضوي والبؤس فقط وإنما الصراع المعنوي، حيث تقول أننا جميعا نموت على أية حال وإن كان ذلك يسرع إلى الموت قبل أن يحين أواني>>[3].

ولعل أنتيجونا تقصد بالموت قبل الأوان هو ما يمكنني أن اسميه الموت الدنيوي الذي يحدث جراء البؤس والجراح والألم لذي يعيشه الإنسان ويشعر به في هذه الدنيا

---

[1]– أحمد عبد القادر صلاحية: الموت في الخيال البحري الأندلسي، مجلة الموقف الأدبي–اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 368، 2003، ص32.

[2]– جاك شورون: سقراط الموت قد يكون حيزا من الحياة، ت، كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة– المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، ع76، 1990، ص47.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة 48.

فعندئذ تصبح الحياة عنده ليس لها طعم ولا فائدة تذكر فيرى بان الموت هو السبيل الوحيد للنجاة من هذا العذاب والقهر.

لقد نبت الشجون المرتبطة بالموت سبلا من المشاعر الجياشة التي صبها لعرب في قالب شعري مثير فإذا كان لشعر موسيقيا حزينة، فليس كالموت ما هو أقرب إلى هذا النغم الحزين، والحزن المنغم[1].

ولعل أصدق مثال على هذا شاعرنا الكبير محمود درويش الذي عاش ويعيش الشعب الفلسطيني بكامله كل أنواع المآسي لأحزان والكآبة والقهر وغيرها من الصفات القاهرة وذلك نتيجة للعدوان الإسرائيلي فمحمود درويش يعيش مثل هذه الصفات وذلك ببداية خروجه من قريته البروة إلى أن أصبح مآله في المنفى.

وكما يحكي الشاعر محمود درويش عن فسه فيقول: إن طفولتي هي بداية مأساتي الخاصة التي ولدت مع بداية شعب كامل، لقد وضعت هذه الطفولة في النار في الحتمية في المنفى مرة واحدة بلا مبرر تتمكن من استيعابه ووجدت نفسها فجأة تعامل معاملة الرجال دوي القدرة على التحمل ولا تستثني من مصيرهم...وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجدنا أنفسنا في بلد اسمه لبنان[2].

فإن الشعب الفلسطيني بصفة عامة ومحمود درويش بصفة خاصة لم يعيش حياته كما يجب أو كما عاشها الآخرون، فبالنسبة إليه فقد احتل الصهاينة طفولته تلك المرحلة التي تعتبر من أجمل ما يعيشه الإنسان من أبهى مراحل الحياة.

فيمكن القول بأن درويش قد زاره شبح الموت منذ الصغر وقد أصبح على دراية بهذه الكلمة وما تعنيه رغم صغر سنه.

---

[1]–أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت، ع 111، 1990، ص12.

[2]–عبد السلام المساوي: جماليات الموت في شعره محمود درويش، دار الساقي للنشر –بيروت، لبنان، ط1،2009، ص11.

ومن هنا يمكن اعتبار الاحتلال المبكر بالنسبة لدرويش هو نوع من <<الموت المسلط على مرحلة من أبهى المراحل التي لا تقوى التجارب الحيوية المنثالة طوال العمر أن تنسي الفرد تفاصيلها>>[1].

وإن محمود درويش استطاع أن يصنع الموت أو أن يشتغل عليه جماليا إلى تحويله لرمز وشفرات يتجاوز بها المأساة، فكأنه يحاول أن يجعل من الموت بداية لحياة وطن آمن مستقر مستقبلا.

فالموت عند درويش لم يكن نهاية للحياة كما قلنا سابقا بل كان يراه بمثابة بداية لحياة جديدة وكأنها تساوي المعادلة الرياضية موت شخص وموت شخص فالنتيجة الحصول على الاستقلال والحياة الآمنة والرغيدة.

ولهذا فالقارئ لأشعار محمود درويش وخاصة المجموعة الشعرية الأخيرة"أثر الفراشة" الذي عنونه تحت اسم يوميات، فقد جعل الموت من يوميات الفلسطينيين، وكأنه أمر عادي ويحصل في كل الأيام وكل الساعات.

ونجد محمود درويش في قصيدته " النبت الصرخة" هذه القصيدة التي تمثل عائلة حرمت مت أبسط حقوقها و هناك الكثير من العائلات أمثالها أو بصفة شاملة الفلسطينيين كلهم، فالموت في الأراضي الفلسطينية أصبح أمرا حتميا، كما أنه لا يفرق بين كبير وصغير، حيث يقول:

على شاطئ البحر نبت، و للنبت أهل
وللأهل بيت، و للبيت نافذة تان وباب...
وفي البحر بارجة تتسلى
بصيد المشاة على شاطئ البحر[2].

---

[1]– عبد السلام المساوي: جماليات الموت في شعر محمود درويش، ص12.

[2]–محمود درويش، أثر الفراشة، ص17.

فكأنما الأمر مجرد لعبة تتسلى بها عند ضيقنا، فالعدوان الإسرائيلي يجعل من الموت، أو كما وصفه محمود درويش" بالصيد مجرد لعبة يلعبها دون إدراك أن من يموت هم بشرا أبرياء ويحق لهم العيش أيضا كما يعيش الآخرين وفي قوله:

فتصير هي الصرخة الأبدية في خبر
عاجل، لم يعد خبرا عاجلا
عندما عادت الطائرات لتقصف بيتا بنافذتين وباب[1].

في هذه لمقطوعة يرى محمود درويش أن الموت لم يعد حيزا عاجلا بل إنه أمر عادي ومتوقع حدوثه في كل دقيقة وثانية بسبب العدوان الإسرائيلي الذي يقوم بذلك عن قصد ألاف المرات

ولاشك أن ظاهرة الموت عند درويش <<تكشف عن رؤية خاصة لقضية الموت عنده فالقارئ لشعره يلاحظ أن الموت ليس بحديث كائن منه بل إن محمود درويش يرى فيه نقطة البدء نحو حياة كريمة حرة وطريقة من طرق السعادة التي يحلم بتحقيقها>>[2].

حيث يقول في قصيدته " شجرة الزيتون الثانية":

" لم تبك ولم تصرخ، إلا أن أحد
أحفادها ممن شاهدوا عملية الإعدام، رمى
جنديا بحجر، واستشهد معها، وعندما مضى
الجنود منتصرين، دفناه هناك في الحفرة
العميقة-مهد الجدة-و لسبب ما بحنا
متأكدين من أنه سيصبح بعد قليل، شجرة زيتون"[3].

إذا تأملنا في هذه المقطوعة سنلحظ أن محمود درويش لم يكن ينظر إلى الموت نظرة تشاؤمية وانهزامية بل كان ينظر إليها نظرة تفاؤل والحكم بحياة أفضل وأحسن في ربوع وطنه.

---

[1]– محمود درويش: أثر الفراش، ص18.

[2]– محمد صلاح زكي حميدة: الخطاب الشعري عند محمود درويش– مطبعة مقداد، غزة، ط1،2000، ص115.

[3]–محمود درويش: أثر الفراش، ص207.

إن محمود درويش يرى بأن الفلسطينيين لن يتخلوا أبدا عن وطنهم و عن أرضهم وأنهم سيضحكون بحياتهم من أجلها، فالموت لم يعد يرهبهم ماداموا قد ماتوا في أرضهم ولم يموتوا خارجها كما يخطط له الصهاينة، فكلما مات الأشخاص في أرضهم كلما ازدادت الرغبة في المواجهة والصمود وفي هذا الصدد يقول درويش<<لا نريد أن نستشهد مجانا، فليس دمنا رخيصا إلى حد التبذير ولا نرغب في الموت في المكان الذي تحدده لنا الأقدار التراجيديا العبثية، ففي بعض البراري لا صدى للصوت، لا صدى للصوت في هذه البرية التي يراد لنا أن نساق إليها كما كانت تساق القرابين الإغريقية إلى المذبح لقد استردت الضحية ووعيها، وهي تعرف أن الكاهن وقائد الجيش، لا يريد أن تحويل دمها إلى مطر كل الصحراء العربية [1].

صحيح أننا سنموت جميعا –ولا غبار على هذا– لكن الموت في الأراضي الفلسطينية يجب أن يكون بمثابة الموت بشرف إن صح التعبير دون الخروج عن الوطن والسماح للعدوان الإسرائيلي بالاستيلاء عليه.

ومن الطبيعي أن يخلق الموت نوعا من البأس والخوف أو في بعض الأحيان شعور بالإخفاق ما يرتبط به من آلام ودموع وضياع.حيث يقول في قصيدته:

الحياة...حتى أخر قطرة
فلن يعذبني الأمر، وإذا كنت أستمع إلى
موسيقى موزارت، اقتربت من حيز
الملائكة، وإذا كنت دائما بقيت نائما
وحالما وهائما بالنار دينيا[2].

ففي هذه القصيدة يرى محمود درويش بأن الإنسان يبقى متشبث بالحياة رغم مرها أحيانا وبؤسها وأحزانها، ويرى درويش بأن الموت يختص كالأرواح في الوقت المقدر مهما حاولنا تجاهله ونسيانه فالحياة كنز ثمين يبقى الإنسان متشبث بها رغم كل شيء

[1]– محمود درويش: في اللحظة المريضة، مجلة الكرمل، العدد 9، 1984، ص8.

[2]– محمود درويش: أثر الفراش، ص130.

<<فليس هناك ما هو أكثر عذوبة من رؤية التمس، وحينما يدنوا الموت لا يعود أحد يرغب في الهلاك ولا تغدر الشيخوخة عبثا>>[1].

لكن مع الأسف تبقى الموت ضرورة من ضروريات الحياة فالموت مقدر مثله مثل الأشياء الأخرى التي نعيشها في هذه الدنيا ذلك لأن الخالق أراد ذلك.

كما تطرق درويش في المجموعة الشعرية "أثر الفراشة" إلى حالة الإنسان عند موته وبتخليه عن كل شيء، وأن الإنسان لن يأخذ معه إلى القبر شيء من الأشياء الدنيوية، كقوله في قصيدة البيت قتيلا:

تنشر على الملأ والخراب، كل هذه الأشياء
ذاكرة الناس التي أفرغت من الأشياء، وذاكرة
الأشياء التي أفرغت من الناس... تنتهي
بدقيقة واحدة، أشياؤنا تموت مثلنا لكنها
لا ندفن معنا؟[2].

إن محمود درويش في هذه القصيدة أو لمقطوعة ينبهنا بان الموت هو ترك كل ما في الدنيا والمغادرة إلى حياة الآخرة، فكأن محمود درويش استعمل في هذه القصيدة التناص الديني فأخذ بالمرجعية الدينية بشكل ضمني، حيث إنه تطرق في هذه القصيدة إلى ما ذكره الإسلام عن الموت وعن كيفية انقطاع الإنسان عن جميع الأشياء في الدنيا إلا عن ثلاث... فإن درويش يعد من أبرز الشعراء التفاتا إلى المخزون الديني سواء كان توظيفها من الإسلام أو المسيحية أو حتى اليهودية، وإن محمود درويش لم يكن الوحيد الذي استعمل <<هذا التناص في شعر بل اتخذ التناص الديني مجالا فسيحا في تجربة الشعر المعاصر، حيث عمد عدد كبير من الشعراء إلى استعادة النصوص والرموز الدينية في سياقاتهم الشعرية من أجل خدمة أغراض فنية ودلالية تزيد النص الشعري عمقا

[1] – جاك شورون: سقراط الموت قد يكون خيرا من الحياة، تر: كامل يوسف حسين، ص46

[2] – محمود درويش: أثر الفراشة، ص130.

وجمالية... لأن الأديان السماوية الثلاثة حفلت بمواقف ورموز مثلت النموذج المقترح من لسماء ليقتدي به البشر فوق الأرض[1].

وربما تطرق محمود درويش إلى وصف ما في الموت حيث أنه نظر إلى الموت نظرة ذاتية بسبب شعوره بالموت أو بإحساسه باقترابه منه بعد المرض الذي أصيب به وكثرة العمليات الجراحية التي قام بها حيث يقول في رسالة كتبها إلى سميح القاسم:<<سافرت من الحياة إلى الموت في فينيا وعدت من الموت إلى الحياة، قيل لي إنني ودعت الحياة بلفظة واحدة"يما"، أمن اللائق أن أصف الموت...موتي>>[2].

فربما هذا ما جعل درويش متميزا عن الشعراء الآخرين الذين طرقوا باب هذا الموضوع (الموت) ذلك لأنه كان تجربة واقعية، وقد عطل محمود درويش إحدى المقولات الفلسفية التي ظلت تردد على امتداد فترات من تاريخنا الحديث حيث تقول هذه المقولة:" قد يقال إننا نستطيع أن نلاحظ موت الآخرين، غير أن هذه الملاحظة لا يمكن أن تتم إلا من الخارج ولن نفهم شيئا عما يكونه الموت بالنسبة للمحتضر وحتى إذا كنا نستطيع أن نعاني أو نكابد موت الغير، فإننا لا نكون قد تقدمنا خطوة واحدة لأن ذلك لن يكون نفاذا إلى المعنى الأنطولوجي لموتي أنا"[3].

فكما قلنا سابقا فإن محمود درويش قد تطرق إلى الموت بطريقة متميزة عن باقي الشعراء لأنه عاش الموت الواقعي.

وقد وصل الحال بالشاعر في التطرق إلى الموت إلى أبعد الصور في قصيدة أخرى نجده يحاور الموت قائلا:

" وقال لي الموت لي متطفلا
لا تنسني فأنا أخوها
قلت: أم سؤال غامض لا شأن لي فيه..

---

[1] – عبد السلام المساوي: جماليات الموت في شعر محمود درويش، ص82.

[2] –المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] –رجيس جوليفييه: المذاهب الوجودية، ت، فؤاد كامل، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص100.

وطار الموت من لغتي إلى أشغاله"[1]

فهذا الحوار أو المقطوعة الشعرية يرى فيها الشاعر أنه لا يجب نسيان الموت وأن تحزنا الحياة الدنيا فيما فيها ولا نفكر في الموت، فبالموت ينكشف عما كان تخبره الحياة فالموت يصبح بمثابة الاستيقاظ من النوم أو السبات أو بصفة أخرى الحياة.

ويقول محمود درويش:

" ولكني لعبت مع الحياة كأنها كرة و لعبة يانصيب...
لم أفكر مرة باللغز ما هي؟
كيف أملأها وتملأني- سألت وقد
رأيت الموت يتركني على مهلي... لأسأل
وانتصرت الوقت، قلت، غدا سأمعن في السؤال
عن الحياة، ولم أجد وقتا
لان الوقت راوغني وغافلني...رطار؟" [2]

فقد استطاع محمود درويش أن يصور أو أن يرسم لنا صورة مبتكرة للموت، فقد أصبح الموت عنده فلسطين وعند شعبها لا يحمل إلينا معاني الخوف أو الرهبة أو حتى الحزن فقد أصبح الموت علامة على الحياة وعلى بداية حياة جديدة و أفضل.

[1]–محمود درويش، أثر الفراشة، ص176.

[2] – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

نستخلص من بحثنا هذا:

- أن الشاعر محمود درويش علامة مميزة للفلسطيني الناهض من بين أنقاض المأساة والجرح النازف والمعاناة الطويلة من خلال ما أودعه في دفاتره الشعرية خاصة في مجموعته الشعرية "أثر الفراشة".
- حيث هذا الديوان يحمل رؤية ثاقبة وآفاق متسعة الفضاء تعكس لنا شخصية هذا الشاعر الكبير.
- كما أن قصائده تحمل لغة شفافة موحية حاملة لشحنة من الأسى والحزن وذلك نتيجة للواقع الفلسطيني وأوجاع هذا الشعب السائد في وطنه الحبيب.
- فالشاعر إن كان قد عجز في الدفاع عن وطنه بالسلاح والمواجهة والوقوف أمام العدو، والتعريف بالقضية الفلسطينية ذلك لا يعني أنه بقى مستسلما بل دافع بالقلم وعبر عن واقعه المرير.
- من خلال ديوان أثر الفراشة قد تناول محمود درويش ثلاث نقاط رئيسة متناقضة فيها بينهما تتمثل في محاولة رسمية للواقع من خلال استرجاع للذكريات وفي الوقت نفسه يحاول أن ينسى ذلك الواقع الأليم.
- وبجمع درويش نوعين من الشعر شعر التفعيلة وقصيدة النثر ونلاحظ أن الكف تأرجح للقصائد النثرية لأنها الأنسب لتصوير الحياة كما هي في الواقع المعاش كما أن الشاعر في هذا النوع لا يجد نفسه مقيد بتلك القواعد المتعلقة بالشعراء الموزون.
- كما تناول قصائد كانت داخل مسرح الأحداث أي في وطنه فلسطين كما نظم قصائد وهو خارج وطنه أي في المنفى وهذا دليل على مدى اهتمامه البالغ وحبه للكبير ومكانه وقيمة فلسطين وشعبه وفي قلبه وإن كان يعيش أصعب الظروف وأصعب مواقف الحياة في تلك الزنزانة القدرة.

- كما تطرق لواقعين: واقع فرض عليه وهو الواقع المتسلط مما جعله يبني واقعا آخر بحلم فيه بالواقع الذي يريد أن تكون عليه فلسطين وهو الواقع المأمول.
- وفي النهاية يجب الإشارة إلى أنه تأثر بالطبيعة مما جعله يستخدم الألفاظ والصور الدالة عليها. ضف إلى هذا تجسيده لصورة الحزن والأسى التي عاشها في وطنه.

وخلاصة القول في هذا البحث أن شاعرنا الفلسطيني درويش من خلال مجموعته الشعرية أثر الفراشة استطاع أن يوفق في تجسيد جدلية الواقع الفلسطيني في غالب شعري متميز نقل من خلاله هذا الواقع جماليا فأرتقى ونزل إليه أحيانا أخرى.

أ- المصادر:

1) محمود درويش: أثر الفراشة، رياض الريس للكتاب والنشر _ بيروت، ط2، 2009.

ب- المراجع:

2) أحمد عبد المعطي حجازي: أسئلة الشعر، منشورات الخزندار_ جدة، ط1، 1992

3) أحمد عبد المعطي حجازي:الشعر رفيقي، دار المريخ _ الرياض، 1988.

4) أحمد عثمان: في الشعر الجاهلي واللغة العربية، مكتبة الشروق، 1996.

5) أدونيس: سياسة الشعر، دار الآداب _ بيروت، ط1، 1985.

6) أدونيس: ها أنت أيها الوقت، دار الأدب _ بيروت، ط1، 1993.

7) اعتدال عثمان: إضاءة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ط2، 1907.

8) بلند الحيدري: إشارات على الطريق، المؤسسة العربية للدراسات و النشر _بيروت، ط1،1988

9) توفيق الحكيم: فن الأدب، دار مصر للطباعة _ جودت السحار وشركاؤه.

10) جاك شورون: سقراط الموت قد يكون خبرا من الحياة، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة _ الكويت، ع 76، 1990.

11) حسن فتح الباب: رؤية جديدة لشعرنا القديم، دار الحداثة _ بيروت، ط1، 1984.

12) حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، جدار للكتاب العالمي _ عمان، الأردن، 2007.

13) رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، دار الهلال _ بيروت، ط2.

14) ريجيس جوليفييه: المذاهب الوجودية، ترجمة فؤاد كامل، الدار المصرية للتأليف والترجمة _القاهرة.

15) سعد البازني وميجانالرويلي: دليل الناقد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء _ المغرب، ط2، 2000.

16) صلاح فضل: النظرية البنائية في النقد الحديث، منشورات دار الآفاق _ بيروت، ط3، 1985.

17) ضياء خضير: شعر الواقع وشعر الكلمات، من منشورات إتحاد الكتاب _ دمشق،2000.

18) عبد السلام المساوي: جماليات الموت في شعر محمود درويش، دار الساقي _ بيروت، لبنان، ط1، 2009.

19) عبد الفتاح نافع: الشعر العباسي: قضايا وظواهر، دار جرير للنشر والتوزيع_ الأردن، ط1، 2008.

20) عبد القادر المازني: الشعر غاياته ووسائطه، دار الفكر اللبناني _ بيروت، ط2، 1990.

21) عيسى علي العاكوب: نظرية الأدب في القرن العشرين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية _ مصر، ط1، 1996.

22) غالية خوجة: قلق النص، المؤسسة العربية للدراسات و النشر _ عمان، ط1، 2003.

23) فاتح علاق: مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر، منشورات إتحاد الكتاب العرب _ دمشق، 2005.

24) محمد توفيق الضوء: مفهوم المكان في فلسفة الظاهر والحقيقة _ منشأ المعارف بالإسكندرية _ مصر، ط1، 2003.

25) محمد حمود: الحداثة في الشعر العربي المعاصر، الشركة العالمية للكتاب _ بيروت، ط1، 1996.

26) محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، منشورات إتحاد الكتاب العرب _ دمشق، 1999

27) محمد صلاح زكي محمود: الخطاب الشعري عند محمود درويش _ مطبعة مقداد_غزة، ط1، 2000.

28) محمد فكري الجزار: الخطاب الشعري عند محمود درويش، إتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2002.

29) محمد مندور: في الأدب والنقد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع _ النجالة، القاهرة، 1991.

ج- الدوريات والمجلات:

1) مجلة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ع 11، 1983.
2) مجلة الجواهر _فاس _ المغرب، ع 7، 1986.
3) مجلة الطريق، ع2، 2001.
4) مجلة الموقف الأدبي، ع 368، 2013.
5) مجلة الكرمل، بيروت _ لبنان، ع 5، 2003.
6) مجلة الكرمل، ع 9، 1984.
7) مجلة الكرمل _ بيروت، ع 6، 1982.
8) مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ع46، شوال 1423 هـ.
9) مجلة عالم المعرفة، ع 111، 1990.

الفهرس

- مقدمة..... أ – ج
- مدخل..... 05 – 15

I) الفصل الأول:..... 16– 37

- شعرية العتبات وصراع المتناقضات

1) قراءة في العتبات

2) شعرية العنوان

3) الموزون والمنثور

4) المكان واللا مكان

5) الذاكرة والنسيان

II) الفصل الثاني:..... 38 – 62

- حضورالخيبة وصور الأشياء

1–الواقع المتسلط

2–الواقع المأمول

- الشاعر و الأشياء:

1) صورة الطبيعة

2) صورة الموت

3–خاتمة..... 63 – 64

4–قائمة المصادر والمراجع..... 65 – 67

الفهرس

- مقدمة..... أ – ج
- مدخل..... 05 – 15

I) الفصل الأول:..... 16– 37

- شعرية العتبات وصراع المتناقضات

1) قراءة في العتبات

2) شعرية العنوان

3) الموزون والمنثور

4) المكان واللا مكان

5) الذاكرة والنسيان

II) الفصل الثاني:..... 38 – 62

- حضورالخيبة وصور الأشياء

1–الواقع المتسلط

2–الواقع المأمول

- الشاعر و الأشياء:

1) صورة الطبيعة

2) صورة الموت

3–خاتمة..... 63 – 64

4–قائمة المصادر والمراجع..... 65 – 67